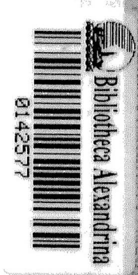
في الأدب والحضارة

بقلم

محمد الحسناوي



دار عمار
عمان

المكتب الإسلامي
بيروت

في الأدب والحضارة

في الأدب والحضارة

بقلم
محمد الحسناوي

المكتب الإسلامي
بيروت

دار عمار
عمان

الطبعة الأولى

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

المكتب الإسلامي
بيروت : ص.ب. ١١/٣٧٧١: هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقيا: إسلاميا
دمشق : ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقيا: إسلامي

دار عمار
الأردن - عمان - سوق البتراء - قرب الجامع الحسيني
ص.ب ٩٢١٦٩١ - هاتف ٧٨٣٢٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الغزو الحضاري

محاسنه ومساوئه

سنة الله في الكون أن يولد الإنسان صغيراً ثم ينمو و يترعرع و يشب حتى يكبر فيعمر فيهرم ويموت، وكذلك الحضارة كالإنسان والحيوان والنبات.. تلد وتنمو وتزدهر ثم تذبل وتندثر. وكما أن النبات والحيوان والإنسان ــ قبل موته و بعد موته ــ يؤثر في غيره من النباتات والحيوانات والناس.. سلباً وإيجاباً، كذلك الحضارة تؤثر في غيرها من الحضارات في حال ازدهارها وحال اندثارها سلباً وإيجاباً فالنبتة الحية تأخذ الهواء والماء والغذاء في الضوء والدفء من الطبيعة، ثم تتمثل هذه الأشياء جميعاً لتنتج الأوراق والثمار والنباتات الجديدة، و بعد حين تضعف وتموت وتغدو سماداً لغيرها، أو غذاء للحيوان والانسان. ودورة الحياة في الحيوان والانسان والحضارة تشبه دورة حياة هذه النبتة أيضاً. وتبادل التأثير بين الكائنات الحية يمكن أن يكون عفوياً، كما يمكن أن يكون مقصوداً؛ فالنبات يستمتع بالدفء والضوء الشمسيين بشكل عفوي كل يوم تقريباً، ولكن المزارع يلجأ أحياناً إلى طرق صناعية توفر

لنباتاته في الشتاء.. الدفء والضوء الصناعيين بنسب محدودة وأوقات معينة وأساليب مقصودة. والمثال نفسه نجده في العلاقة بين الحضارات، فالتأثير الحضاري يمكن أن يكون عفوياً بحكم الجوار والاحتكاك والتفاوت في سلم المدنية أيام السلم.. كما حدث ذلك في أسبانيا حينما كانت الحضارة الأندلسية في أوجها وأوروبا في عصورها الوسطى المظلمة. ويمكن أن يكون التأثير الحضاري مقصوداً بحكم التوجيه والتعليم المباشرين والغزو والفتح.. فالديانات والحركات الإصلاحية حركات حضارية مقصودة موجهة تبدأ من الفرد فإلى الجماعة الصغيرة فالجماعات الكبيرة.

والتأثير الحضاري وجه مشرق لانواع التأثير بين الامم والثقافات، فهناك وجه آخر مظلم هو التدمير أو التأثير غير الحضاري كموجات التتار والمغول والاسبان والصليبيين التي أغارت على الحضارة الاسلامية فأتت عليها أو كادت لانها موجات جاهلة خاملة متفسخة ظالمة.

وربما اختلط التأثير الحضاري بالتدمير الحضاري في حالات كثيرة اختلاط السم بالدسم.

اليوم:

واليوم يقف العالم الاسلامي موقف المجال الحيوي للحضارة الغربية (الاوربية) شاء أم أبى، فالحضارة الغربية في أوجها.. والعالم الاسلامي في بداية يقظته. الحضارة الغربية قوية مشرقة غنية ضخمة ساحرة باهرة.. والعالم الاسلامي ضعيف مظلم فقير منكمش

خامل مزدرى (!) وهذه الاسباب المتقابلة تكفي وحدها لحبك خيوط التفاعل الحضاري.

لكن:

ولكن هناك تساؤلات خطيرة تخطر على البال:

أولاً: ما الحضارة، وما تركيبها؟

ثانياً: لماذا تهوي الحضارات بعد ازدهارها؟

ثالثاً: هل الحضارة وحدة (كل) لا يتجزأ؟

رابعاً: ما موقف الوريث الجديد للحضارة المنهارة؟

خامساً: ما موقف العالم الاسلامي من الحضارة الغربية؟

فلنحاول الاجابة على كل تساؤل من هذه التساؤلات بقدر الامكان.

أولاً:

ان الحضارة أية حضارة تتألف من اتحاد عناصر ثلاثة هي (الانسان والزمن والتراب) اتحاداً متيناً موجباً فعالاً. ولما كان الانسان هو العنصر الموجه المؤثر المتغير بين العناصر الثلاثة وجب علينا رصده ودراسته أولاً وآخراً. فالانسان بعقله وعضلاته.. بعقول أخوانه البشر وعضلاتهم... يستنبط من التراب الذهب والحديد والفضة والبترول، و يستفيد من مرور الزمن لزيادة القوى والانتاج والمعارف. والانسان فرداً وعضواً في المجتمع وعنصراً من عناصر الحضارة.. ليس فكراً محضاً ولا روحاً ولا شعوراً محضاً ولا قوة عضلية

وحسب! بل هو إلى ذلك ذو رسالة في الارض تقتضيه فيما تقتضيه واجب عمارة الارض والتعايش مع أبناء جلدته ومع عناصر الكون الاخرى بتعاون وسلام. وواضح أن أي مشروع ــ مهما كان بسيطاً -كانشاء بيت- لا يمكن أن ينجز لمجرد اجتماع الفأس والدلو والماء والتراب والحجارة والحبال والحديد وعضلات الانسان، هذا اذا اجتمعت هذه الاشياء عفواً، بل ان حاجة الانسان إلى هذا البيت، والتصميم الذي وضعه له قبل انشائه، والجماعة التي عملت معه على انشائه، والروابط، والصلات الاجتماعية التي ألفت بين عناصر هذه الجماعة حتى اجتمعت وتساندت.. كل ذلك يدخل في الحسبان. وعليه.. ان الذي يجمع بين الانسان والآخر وبين الجماعة والجماعة أو بين الانسان والزمن والتراب.. جمعاً تركيبياً فعالاً هو شيء خاص يسمى الثقافة،والثقافة رصيد فكري ينطوي على خبرات الافراد والجماعات فيما بينهم وبين أنفسهم، وفيما بينهم وبين الكون أو الطبيعة، وفيما بينهم وبين الله تعالى. فالثقافة تعتمد على الخبرة أو المعرفة اليقينية المنزلة من عند الله وتعتمد على الخبرة التجريبية المكتسبة بعد المحاولة والخطأ في اطار البيئتين الاجتماعية والطبيعية كما تعتمد الثقافة على الخبرة الظنية التأويلية. وكل خبرة من هذه الخبرات تمثل عنصراً من عناصر الثقافة كالدين والعلم والفلسفة. والفلسفة وجه آخر للدين، ذلك الدين الذي لم ينزل من عند الله بل اخترعه حكماء القبيلة أو كهان الجماعة، على أن وظيفة الدين والفلسفة واحدة وهي وضع نظام للعلاقات بين عناصر الكون فيما بينها. وأبرز خصائص الدين التي تتعلق بالمجتمع الانساني والتركيب

الحضاري هي الاخلاق ولكن شتان ما بين الاخلاق الربانية والاخلاق الشيطانية.

فالدين والعلم يؤلفان الثقافة، والثقافة هي عالم الافكار الذي يحيط المجتمع الحضاري فيوجهه ويحكمه و يرقيه طالما كان الدين والعلم يؤديان دوريهما خير أداء دون تصادم أو تهاون؛ لانهما جناحان متكاملان لا يتناقضان ولا يتعارضان، لكل منهما اختصاصه ومجالا ته.

العلم الحقيقي يخدم الدين الحقيقي بتسفيه الاوهام والخرافات والشعبذات وانارة العقول والمدارك، كما أن الدين الصحيح لا يعرقل نمو العلم الصحيح بل ربما حض عليه وطلب الاخذ به والاستفادة منه كما في الدين الاسلامي.

هذه ناحية، وناحية أخرى ان العلم الصحيح متطور أي ينشأ بسيطاً أو غامضاً ثم ينمو و يضطرد عبر الاجيال والحضارات حتى يتعقد و يتوسع و يتفرع و يرسخ بنيانه فهو عالم متحرك، بينما الدين الذي ينطوي على الاخلاق.. بطبيعته ثابت، ويجب أن يكون ثابتاً، فالصدق والامانة والاخلاص والتعاون حقائق ثابتة كثبوت الطول والقصر والسواد والبياض؛ لكي لا تلعب الاهواء والمطامع والانانيات بالقانون الذي يحكم الجماعة وهو الدين أو الاخلاق. وهذا لا ينفي الفروق الثانوية بين الاديان السماوية التي نزلت على التوالي وأخذت تتكامل على مرور الزمن مناسبة لأحوال الامم التي نزلت عليها والازمنة التي نزلت فيها حتى جاء الاسلام كاملاً شاملاً

خاتماً. كما لا ينفي الحيز الاجتهادي الذي تركه الله للمسلمين في دينهم ومعاملاتهم لما له من علاقة بالامور المتبدلة المتطورة في الحياة الاجتماعية تطور العلم والصناعة والمجتمعات.

وليس يغني العلم عن الدين ولا الدين عن العلم على الرغم من المحاولات الكثيرة التي بذلت في هذا السبيل منذ القديم حتى اليوم، فالماركسية والرأسمالية تلحان من حيث تشعران أو لا تشعران على الروابط الانسانية والعلاقات الاجتماعية وأهميتها في زيادة الانتاج وتحسينه وتعترفان بدور الافكار في توجيه الاعمال.. مما له العلاقة الوثقى بالاخلاق والدين. لان الدين هزة وجدانية تصهر الجماعة وتؤلف بين عناصرها قال الله تعالى: ﴿ لو أنفقت ما في الارض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾.[1]

واذا كان لا بد من الترجيح بين العلم والدين، فالدين هو الراجح، لان العلم نتاج الجماعة، بينما الدين هو الذي يجمع الجماعة و يؤلف بينها فضلاً على أن يوجهها إلى طلب العلم. كما أن الدين الصحيح يحرر العقل من الوهم والخرافة و يضع الاطار النظري العام للانسان والكون والحياة، فيرى من خلاله المتدين الاشياء في الطبيعة أشياء خاضعة للمس والنظر والتجريب لا آلهة مقدسة مخيفة، وان كانت هذه الاشياء منيرة كالشمس والقمر والنجوم أو قو ية كالريح والبحر والنهر، وان كانت محرقة كالنار وولودة كالاعضاء الجنسية.. فهي كلها أشياء.. أشياء، لا تقدس ولا تحتقر.

---

(1) سورة الانفال: الآية ٦٣.

ثانياً:

عندما تهب العاصفة على الغابة فان الشجرة الهرمة المتآكلة وحدها هي التي تتحطم، وكذلك الحضارة.. تسقط من الداخل، تسقط أو تأخذ بالسقوط حينما ينفرط عقد تركيبها الحضاري المؤلف (من الانسان والزمن والتراب) وهذا التركيب ــ كما رأينا ــ يلعب فيه الانسان الدور الاول، ولكي يلعب الانسان هذا الدور القيادي لا بد له من الثقافة التي هي العلم والاخلاق؛ بل النظرة المستقصية لأسباب سقوط الحضارات المعروفة حتى اليوم.. تشير إلى أن الاخلاق هي العامل الحاسم فكثيراً ما كانت العلوم في أوج ازدهارها حين تفاجأ حضارتها بالضربة القاصمة، كما حدث للحضارة الاسلامية عند هجوم التتار على بغداد، وعند انقضاض الاسبان على الاندلس، وكما حدث للحضارة الرومانية أيام هجمات الامواج البربرية على روما. وكما وقع لامبراطوريتي كسرى وقيصر أيام الفتح الاسلامي مع الفارق بين الامثلة.

الحضارة كالنبتة، كالعمارة.. تحتاج إلى جهود، إلى جد، إلى صبر، إلى فائض من القوى، إلى ارادة واعية هادفة.. لكي تنمو وتزدهر. والاخلاق وحدها التي توفر هذه الاشياء. فهي بالنظام توظف أعضاء المجتمع الحضاري في أماكنهم المناسبة دون صدام أو تشتت أو ارهاق أو عطب، وبالجد تهيء لهذا المجتمع فائضاً انتاجياً دائماً رابحاً من فكر وصناعة وفن، وبالارادة الواعية تشد الناس إلى أهدافهم ومثلهم العليا باستمرار.. فاذا ظهر انحراف في الطريق قامت جماعة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وترد السالكين إلى الغاية المنشودة،

و بالتقشف ذلك الضريبة الاخلاقية تضمن فيضاً من الانتاج وتحفظ النفوس من الميل إلى الدعة والكسل وكذلك بالتضحية يستشهد الجندي و يسهر العالم المخترع والرسام المبدع و يتعب العامل والفلاح، و بالحب يتماسك هذا المجتمع كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، اذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الاعضاء بالسهر والحمى. وهكذا تتجمع المحاصيل النافعة والقوى الضخمة، فتقوم الحضارة، و يضطرد العمران أكثر فأكثر. أما اذا ذهبت هذه المظاهر أو انحلت الاخلاق فتفشت الفوضى والترف والبذخ والاسراف ـــ قال الله تعالى: ﴿ واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾ ـــ ومعاقرة الخمور والركون إلى شهوات النفس والجنس واقتناء الجواري الوصيفات والعبيد والمغنيات والانانية واستعباد الافراد والجماعات والتهرب من المسؤولية .. في مجتمع ما، فقل على هذا المجتمع السلام.

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت   فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ثالثاً:

لكل حضارة تركيب معين من اتحاد العناصر الثلاثة، (الانسان، الزمن، التراب) يختلف عن تركيب حضاري آخر في شدة تماسك هذه العناصر ونوع الاخلاق أو الثقافة التي توجه العنصر الاساسي وهو الانسان، و بذلك تختلف مثلاً العادات والتقاليد وأزياء الثياب وتخطيط المدن وهندسة المساكن والأذواق والأطعمة

---

(١) سورة الاسراء: الآية ١٦.

... مما له علاقة بالاخلاق والدين أو بالأحوال الاجتماعية أو الاحوال الطبيعية كالمناخ والارض. ولكن هذا التركيب الحضاري يجب أن يكون متماسكاً حتى يستطيع انشاء حضارة، وهو قادر على دعم مجتمعه الحضاري ما دام كذلك، فاذا تخلخل التركيب أو انحل رباطه بانحلال الاخلاق.. كانت الطامة والانهيار، لان التخلخل البسيط مهما كان بسيطاً في البداية ـــ سيكون بعد حين هوة عميقة، كانفراج الزاوية الذي يبدو ضيقاً في بدايته يغدو واسعاً جداً في نهايته. وهكذا يصبح التركيب الحضاري مجرد تجميع وتكديس لعناصر الحضارة كالانسان والزمن والتراب.. أو لمظاهر هذا التركيب من أخلاق فارغة جامدة وصناعة كمالية مترفة وأوقات مهدورة مضيعة في اللهو والكسل وعقول مغرورة متعالمة سطحية وجيل متواكل فخور بآبائه وأجداده لا بأعماله ومبتكراته. فالحضارة تظهر وحدة متماسكة وتؤول إلى أجزاء مبعثرة فيها الغث والثمين بعد أن تتم دورتها الحضارية.

رابعاً:

أما موقف الوريث للحضارة المنهارة، المرشح لانشاء حضارة جديدة فهو موقف يختلف كل الاختلاف عن موقف المجتمع الذي مالت حضارته إلى السقوط، لان المجتمع المريض لا يحس بأمراضه، واذا أحس بها فانه ينكرها أو يتجاهلها كالعيوب التي يسعى إلى تغطيتها؛ وعلى كل حال لم يستطع حتى الآن مجتمع حضاري أن يمسك حضارته عن السقوط بعد أن بلغت أوجها، عرف أسباب

السقوط أو لم يعرفها. الوريث الجديد سوف ينشيء حضارة جديدة بتركيب حضاري جديد، يضم هذا التركيب فيما يضم البقايا المشرقة من الحضارة السابقة كالمكتشفات العلمية والانجازات الفنية، كما يضم الوثبة الاخلاقية التي افتقدتها الحضارة المنهارة على مرور الزمن، هذه الوثبة التي تستمد غالباً من الاديان السماوية مباشرة أو بالمحاكاة. وليس على الوريث الجديد أن ينتظر تدهور الحضارة حتى تنهض حضارته، بل الحضارة الجديدة تشق طريقها حالما تصل تلك إلى أوج ازدهارها أو قبله بقليل.

نحن والحضارة الغربية:

والآن وقد أصبحنا مجالاً حيوياً وهدفاً طبيعياً ومقصوداً للحضارة الغربية.. وجب أن نحدد سياستنا تجاهها. لقد فاجأتنا هذه الحضارة بالغزو الاستعماري بعد أن تآمرت على الخلافة الاسلامية المتمثلة بالدولة العثمانية، وتقاسمتها تقاسم اللصوص لغنيمة من الغنائم؛ فكان موقفنا منها الرفض المطلق، فلم تيأس بل عملت على (فرنجتنا) لا على تحضيرنا بما استخدمته من قوانين ودساتير في حكمها لنا وتوجيه سياستنا الداخلية والخارجية، وبما أسست من مدارس التبشير ومؤسساته وأجهزته، وبما ابتكرته من فنون الدعاية والتوجيه في الاذاعة والصحافة والطباعة والحركات السياسية السرية والعلنية.. إلى أن جاء يوم آتت فيه هذه السياسة أكلها، فخرجت الجيوش العسكرية ولم تخرج الجيوش الحضارية فكراً وأخلاقاً، فوقع العالم الاسلامي في بلبلة وتناقضات لا أول لها ولا آخر فانقسم الناس بين

مقبل على هذه الآثار الغربية ومعرض عنها ومذبذب بين هذا الموقف وذاك. ولكننا نعترف بأن صفير القاطرة واشراق الكهرباء وسرعة السيارات وسحر المطبعة وروعة الآلة وما شاكل من الفتوح العلمية والصناعية قد غطى على الجانب الاخلاقي، وبهر الكثيرين من العامة والمثقفين، فأقبلوا على هذه المظاهر حالمين مستسلمين، أما الجمهرة الكبيرة التي رفضت الحضارة الغربية فقد أخذت تنكمش وتنحسر شيئاً فشيئاً بالانقراض أو بالخضوع للتيار الاجتماعي الغالب، فلم يعد مستغرباً أن ترى المسلمة الكاسية العارية تصلي وتصوم، والعالم المسلم يرتدي المعطف والسروال الأجنبيين. أما الفريق الذي رفض الحضارة الغربية رفضاً مطلقاً فقد ثبت خطأ انعزاله وجموده عند حد معين من المستوى الحضاري الذي أصبح اليوم نسياً منسياً، فأخلاقه جوفاء تقليدية لا تخلو من الرياء والحذلقة والتصنع والجهل والضيق، وعلومه لا تتعدى ارتكاز الارض على قرن ثور وتسطح الارض والاعتماد على المحراث الروماني. أما الفريق الآخر المناقض لهذا الفريق، المقبل على الحضارة الغربية اقبالاً أعمى دون روية أو تمييز.. فقد أخذ يبدو لكل ذي عينين مدى انحرافه وانجرافه، لانه كالفريق السابق مغال في الافراط أو التفريط لا يعرف سنة الله في الكون ولا دورة للحضارات ولا تركيب عناصرها ولا اعراضها وأمراضها؛ فالفريق الاول رفض الجانب المشرق من الحضارة وهو العلم وانكب على أخلاق تقليدية، على حين انبهر الفريق الآخر أمام اشراق العلم فتناسى أخلاق الغرب؛ وليت العلم الذي بهره اشراقه قد أنار بصيرته وأيقظ وعيه. كلا انه لم يقبل على منابع النور على عالم

الافكار بل أقبل على عالم الاشياء على الازياء والتقاليد واقتناء السيارة والمذياع والتلفزيون دون معرفة العلوم التي انتجتها ولا المراحل التي مرت بها حتى أصبحت بمتناول يده، فبات سلعة حضارية مثلها يزرع القطن، ويحصد القمح، ويجمع الصوف، ويمتح البترول، و يصدر انتاجه البكر إلى الغرب وهو يمضغ التبغ أو يلعب النرد منتظراً عودة الباخرات المحملات بمنتجات الحضارة لا بأفكارها وعلومها وفنونها.

واذا كانت سنة الله وطبيعة الحياة.. أن يهب فريق ثالث في العالم الاسلامي، يبرأ من آفات هذين الفريقين ومن عقدهما الحضارية في الافراط والتفريط.. في الاحباط والصراع، فيقوم مقام الطليعة النخبة الواعية لحقيقة الغزو الغربي والمعركة الحضارية، و يتخذ الموقف المتوافق المتوازن.. فان المسألة اليوم أخطر من أي عصر سابق؛ لان هذه الحضارة الغربية قد بلغت مفاسدها وأنانيتها حداً خطيراً، شأن العجوز المتصابية على حافة القبر.. تتمسك بالحياة بكل ما أوتيت من قوة، وتتعاطى العقاقير المنشطة دون جدوى، وكلما لاح لها المصير المحتم لوحت بالقنبلة الذرية لكي لا تهلك وحدها؛ وتصر إلى اليوم على الاستعمار العسكري والفكري والاقتصادي وعلى التميز العنصري والتهالك على الشهوات الجنسية والربا والميسر، ولم تؤدبها حربان عالميتان هزتا كيانها هزاً، الامر الذي يعرقل اضطراد سير الفريق الاسلامي الواعي لدوره الحضاري الجديد.

والامر الآخر.. هو أن المرشحين لوراثة الحضارة الغربية ليسوا

فريقاً واحداً، فالامم النامية حديثاً كشعوب آسيا وافريقيا كلها مرشحة لهذا الدور، متنافسة عليه، فأية ثقافة ستكون الوريث، أهي الثقافة الاسلامية أم البوذية أم الكونفوشية أم اليابانية؟! ولكن الارادة الواعية في المجتمع الاسلامي يمكن أن تحث الركب وتنظم القوى، كما أن عظمة الثقافة الاسلامية جديرة بلفت الانظار اليها وعطف القلوب عليها.

وأمر ثالث.. هو صعوبة التمييز بين عناصر هذه الحضارة المترنحة التي تدافع عن مواقعها شبراً شبراً، فلقد أنشأت الفلسفات الضخمة لتبرير أعراضها وأمراضها، فالماركسية اختلاجة كبيرة من اختلاجات النزع الاخير، وهي تبرير لاعتماد الحضارة الغربية على المادة والعلم دون الاخلاق، أما الوجودية فهي لون آخر من ألوان الحركات الدفاعية للحضارة الغربية، فهي فلسفة تبرر الانانية والفوضى العالمية والاخلاق المنهارة من جهة، وتصدر هذا السرطان الفتاك إلى الشعوب النامية الفتية لتدمرها كالعالم الاسلامي من جهة أخرى، فأية حضارة كهذه الحضارة تعمدت دس السم في الدسم والاعمار بالتدمير؟!.

ولهذا كان واجب النخبة الاسلامية أن تنصب موازين النقد والتحليل لهذه الحضارة كي يصار إلى اختيار النافع وعزل الضار. وأن تنمي الوعي الحضاري في العالم الاسلامي فتشرح دورة الحضارات وأسرار الغزو الحضاري وأنواع التأثير الحسن والسيء بين الحضارات عامة وبيننا وبين الحضارة الغربية خاصة. وأن توضح دور الاخلاق

بل الدين في ايقاد الجذوة الحضارية وتنميتها ورعايتها. وأن تلح دوماً على تميز الكيان الاسلامي من الكيانات الاخرى لا سيا كيان الحضارة الغربية ليستطيع المسلم النظر اليها نظرة حيادية مستقلة نقادة من عل.

أما تأثير الحضارة الغربية خيراً أو شراً فانه مستمر لا سيا عن طريق أجهزة الاعلام والاحزاب المستغربة، حتى يبلغ حد الاشباع المحتم. والمأمول ألاّ يصل العالم الاسلامي إلى هذا الحد الا والطليعة الاسلامية قد أمسكت بدفة التحويل الحضاري والوثبة الاسلامية.

مراجع البحث:

١ - سلسلة مشكلات الحضارة، للاستاذ مالك بن نبي.
٢ - سلسلة الكاتب الانكليزي كولن ولسون الحضارية: (اللامنتمي ـــ سقوط الحضارة ـــ طقوس في الظلام).
٣ - من روائع حضارتنا، للدكتور مصطفى السباعي.

إيثار الحق على الواجب[1]

ظاهرة غير حضارية

في كل بلد فرد يطالب بحقوقه، من يستطيع أن يمنح هذه الحقوق؟ ولمن؟

ـ أحد المفكرين ـ

يولد الانسان وتولد معه الحقوق والواجبات، فلكل انسان حقوق وعليه واجبات. من حق الطفل على ذويه أو على المجتمع الغذاء والكساء والحماية والتعليم.. ومن الواجب عليه أن يؤدي لهم واجبات الطاعة والتقدير والمعونة والشكر كفاء ذلك. والامر نفسه بالنسبة للجماعة تجاه الجماعة من اصغر الحجوم إلى أكبرها.

ولما كان الانسان ومن ثم الجماعات في تذبذب دائم بين نزعتي الاثرة والمشاركة الجماعية الفطريتين... نهض الضمير أو العرف أو القانون بدور الموجه المنظم الذي يعمل على اقامة التوازن كلما أصابه الخلل. وبقدر الاعتماد على الضمير أو القانون يتمايز الافراد والجماعات في مدى الرقي، اذ ليس سواء من يؤدي واجبه عن طواعية ومن يحمل على أدائه حملاً.

واذا كان الانسان الفرد يقدم جهوداً لنفسه أو للآخرين لتوفير الحد الضروري للعيش أو لتخزين وفر احتياطي يدرأ احتمالات المستقبل أو لضمان النعيم.. فان الجماعة متضامنة لدفع الاخطار المحدقة أو لبناء الحضارة.. سوف تقدم جهوداً أضخم لتخزين انتاج مستمر، اذ الحضارة باختصار.. جهود اضافية بذلها العباقرة والعاديون على حد سواء، وعلى اختلاف في الاهمية والكمية. و بتعبير آخر: ان الحضارة مجموعات كبيرة من التضحيات المختزنة المتكاملة. وكلما عظمت هذه الجهود الاضافية والتضحيات وزادت جودة كانت الحصيلة أي الحضارة عظيمة. وكلما بذل كل فرد أو جماعة أقصى ما في الطاقة.. كان الوضع الحضاري سليماً، والخط الاجتماعي سديداً.

أما أنواع الجهود المبذولة فمتدرجة من النصيحة إلى الجهد العضلي البسيط إلى تقديم المال إلى بذل النفس الذي هو أقصى غاية الجود قال الشاعر:

جود الرجال من الايدي وجودهم
من الكلام.. فلا كانو ولا الجودُ

وقال الرسول عليه السلام: (تبسمك في وجه أخيك صدقة، واماطة الاذى عن الطريق صدقة). وقال الله تعالى: ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وانفسهم. فضل الله المجاهدين بأموالهم وانفسهم على القاعدين درجة، وكلا وعد الله الحسنى، وفضل الله المجاهدين على

القاعدين أجراً عظيماً. درجات منه ومغفرة ورحمة، وكان الله غفوراً رحيماً﴾[1].

يرى علماء التاريخ ودارسو الحضارات ان للدورة الحضارية ثلاث مراحل بين الميلاد والافول تسمى المرحلة الاولى باسم مرحلة الروح والثانية مرحلة العقل والثالثة مرحلة الغريزة. وأيا ما كانت الاسماء فالملاحظ أن مرحلة الروح التي تسمى كذلك مرحلة البطولة[2]. تتميز بخصب العطاء الذي يقدمه الفرد والجماعة فوق القدر الضروري بل فوق ما يمكن أن تبذله الطاقة البشرية، فكأن الجيل الاول سبيكة من الفدائيين والصديقين والشهداء، كل فرد يفتدي الآخر أو المبدأ المشترك بالمال والنفس.. فاذا الارض بطرفة عين غير الارض عدلاً وبنياناً.

أما المرحلة الثانية فأبناؤها أقل عطاء واكثر استهلاكاً لغراس الاجداد، فاذا جاءت المرحلة الثالثة انعدم العطاء وتفشى التكالب على الدنيا، وعمت الاثرة، فكان العقم والغروب فالانهيار.

روى ابن كثير في (البداية..) ان التتار أحاطوا بدار الخلافة العباسية يرشقونها بالنبال من كل جانب حتى اصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة خطاياه، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة، فانزعج الخليفة المستعصم من ذلك، وفزع فزعاً شديداً[3]. وبعد أن

---

(١) سورة النساء. الآيات ٩٤-٩٥.

(٢) شروط النهضة ــ الطبعة الثانية ــ مالك بن نبي ــ ص ١٩- ٤٦.

(٣) البداية ج ١٣ ــ ص ٢٠.

تحدث ابن كثير عن فظائع الطغاة التتار بالمسلمين آخر الخلافة العباسية تضرع إلى الله وقال: (يسر الله للمسلمين والاسلام من يحفظهم ويحوطهم، فلقد دُفِعوا من العدو إلى أمر عظيم، ومن الملوك المسلمين إلى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه)[1].

هذا المستعصم بالله (؟) حكي عنه أنه لما ترامى اليه نبأ سقوط أطراف الخلافة تحت زحوف التتار.. قال: (انهم لن يبخلوا عليّ من هذه الخلافة المترامية الاطراف أن يتركوا لي ملك بغداد). فكان ان مات دهساً في جوالق تحت الاقدام.

فأين نحن من هذه الدروس؟؟

يقال إننا في عصر النهضة، عهد اليقظة، مرحلة الوثبة من صعيد التخلف والتبعية إلى سماء العزة والريادة. فهل نحن كذلك؟؟

هل يؤدي كل منا واجباته قبل أن يطالب بحقوقه، فضلاً عن تضحيته بحقوقه وايثاره للواجبات؟؟

لا، لا، أبداً.

ما السبب؟

أهي رواسب عهود الانحطاط، أم هي التبعية لمجتمعات بلغت المرحلة الحضارية الاخيرة مرحلة الغريزة والكسل واللهو والعقم... كالمجتمعات الاوربية اليوم، الآخذة بفلسفة المنفعة (البراجماتزم) في التفكير والسلوك والانتاج والسياسة، أم هي الاتجاهات التي استنبتتها منظمات لها شأن كبير في المجتمع أم مجموع ذلك كله؟؟

---

(١) المصدر نفسه. ج ١٣ — ص ٨٩.

اذا كانت رواسب عهود الانحطاط قدراً قاهراً نقضيه شيئاً فشيئاً، وكان التأثر بنفوذ الحضارة قانوناً اجتماعياً لا مهرب منه، فان الداهية الدهياء والطامة الكبرى من المنظمات المتصدرة عن وعي وتصميم ما بعده تصميم لتوجيه الجماهير ورسم المصير.. حين تؤجج نار الاثرة بمختلف انواعها على حساب الواجب المشترك، جهلاً بالمعادلات الحضارية ومراحلها، أو تجاهلاً ينطوي على الاستهواء ووضع المطامع والمكاسب العاجلة المدمرة موضع التضحية والايثار. قال الشاعر:

وان الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمي لمختلف جداً
فإن اكلوا لحمي وفرت لحومهم وان هدموا مجدي بنيت لهم مجداً
وإن ضيعوا غيبي حفظتُ غيوبهم وان هم هَوُواغيي هويت لهم رشدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

التَّبديل الاجتماعي

المجتمع الاسلامي هو التجسيد المادي للاسلام في الصحة والاعتلال. ولما كان الاسلام مثلاً أعلى في الكمال والصحة، ولما كانت الشبهات التي تثار حول الاسلام، والحملات التي تجيش ضده، وانحسار ظله الحقيقي عن ثغوره، والحيف الذي حاق به عبر التاريخ.. انما يرجع اكثر ذلك إلى المسلمين أنفسهم، إلى الذين هانت نفوسهم، وانشقت عصاهم بجهلهم لدينهم، وانصرافهم عنه، وجمودهم على رسوم جوف لا تغني ولا تسمن من جوع، ولا تدفع ظلماً ولا تبني مجداً، فضلاً عن ان تقيم حضارة جديدة، وتسعد انسانية، ولما كان اهتمام الدعاة الاكبر إلى يومنا هذا منصرفاً إلى عرض الاسلام روحاً وفكراً وتشريعاً وتاريخاً.. لهذا كله ـــ وجب الالتفات إلى المجتمع الاسلامي الحديث، لتيسير تطبيق الاسلام و بناء مجتمعه الأمثل على أسس راسخة وتخطيط واع.

ميزة الحركات الاسلامية:

وهذا لا يعني ان المسلمين، بما فيهم العاملون، قد غفلوا عن المجتمع تماماً، بل ان الميزة الاولى للحركات الاسلامية في عصر

النهضة هذا.. هو ذلك الاحتفال المتعاظم بالاصلاح الاجتماعي، والاهتمام الواضح بأحوال المسلمين في شرق الأرض وغربها، لكنه اهتمام الجريح بالجريح تأسياً وتسلية، لا اهتمام المغيث بالمستغيث على الأغلب لاعتبارات كثيرة [1]. ومن نافلة القول ان نشير إلى ان الاستعمار ودوائر استخباراته وحركات التبشير على وعي تام ومعرفة كاملة بالمجتمع الاسلامي واتجاهاته وظروفه وثغراته، وعلى أساس من هذا الوعي والمعرفة يتلاعب الاستعمار والتبشير والصهيونية بمجتمعاتنا ومقدراتنا واتجاهاتنا ايما تلاعب [2]. فلا أقل من أن نعرف انفسنا بقدر معرفة اعدائنا بنا.

اما دراسة المجتمع الاسلامي لاصلاحه، فليست بالأمر السهل، ولكن الذي يسهل الدراسة شق الطريق واقامة الصوى والسير الحثيث المستقيم. وأول مرحلة موضوعية من مراحل الدراسة التعرف على الشيء المدروس تعرفاً أولياً واضح المعالم والأبعاد، وحسبنا ما عانى العاملون من الخوض في المجتمع على غير هدى كالخابط في الظلام أو الحارث في البحر، وهل وعظ بعض الوعاظ وخطب نفر من الخطباء الا من هذا القبيل؟

---

(١) انظر (الاسلام في القرن العشرين) لعباس محمود العقاد. و (واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم) لأبي الأعلى المودودى. و (حاضر العالم الاسلامي) لشكيب ارسلان ولوثروب ستودارد. و (المسلمون في الهند) لأبي الحسن الندوي.

(٢) انظر كتاب (التبشير والاستعمار) لفروخ والخالدي. و (الاستعمار الفرنسي في افريقيا السوداء) لفيليب قونداسي.

ان احدنا اذا دعي إلى قيادة سيارة، ولم يكن قد مارس قيادتها من قبل، يجد نفسه بحاجة إلى معرفة اجزائها واجهزتها وأساليب توجيهها، ان لم نقل بحاجة إلى دورة تدريبية عليها. هذا اذا كانت السيارة سليمة صالحة للسير، فهل يعرف الداعية المسلم مجتمعه مثل هذه المعرفة، وهل مر بدورة تدريبية على فن الدعوة والاصلاح والتربية، مع العلم أن السيارة آلة جامدة لا تعصي قائدها ما أمرها، على حين أن تكوين الانسان الفرد أكثر تعقيداً واشد مراساً، فكيف بالمجتمع الذي هو مجموعة افراد ومجموعة صلات متشابكة تزداد صعوبة وتعقداً في أحوال الضعف والانحلال.

وان هناك نفراً من الناس ــ صالحين أو طالحين ــ قادرون على التأثير البعيد في المجتمع، كاللاعبين المهرة في لعبة الشطرنج. وما مخطط الشطرنج الا مثل مبسط لمخطط المجتمع. فتبديل حجر بحجر قد يعني الفوز الباهر، كما يعني الخسارة الفادحة، وعلى قدر احاطة اللاعب بدور كل حجر وبموضعه وعلاقته بغيره سلباً وايجاباً في الحاضر والمستقبل.. تتحدد النتيجة. وكما ان المهارة في فن من الفنون كلعب الشطرنج ترجع إلى واحد من اثنين ــ الموهبة أو الخبرة المكتسبة، ومثل ذلك التبديل الاجتماعي. لكنما مصير المجتمع لا يعلق، ولا يجوز أن يعلق بظهور الموهوبين، لأن خسارة شوط الشطرنج ليست كخسارة مجتمع بأسره. فالحريص على الفوز في لعبة الشطرنج ازاء منافس ماهر.. تراه يستعين بالأنصار والمشيرين فاذا الكثرة تغلب الشجاعة كما يقال. فلنتعرف على مجتمعنا، ولنتبين سبلنا خلال شعابه ومفازاته.

عناصر المجتمع:

ان المجتمع أي مجتمع كل يتألف من اجزاء ومن مجموعة علاقات وصلات متراكبة متشابكة تخضع لقوانين معتبرة على الرغم من صعوبة التقنين والتأويل في العلوم الانسانية (وتتلخص هذه العلاقات في تفاعل فرد مع آخر أو مع الجماعة أو مع الثقافة القائمة، وهو مؤثر فيها أو متأثر بها. هذا وتمتد هذه العلاقة إلى تبيان اثر الجماعة في جماعة اخرى ومدى تأثرها بها)[1].

ولكي نتجاوز النظرة الكلية إلى المجتمع خشية أن نصدم بشكل عام مبهم تنطبع عليه أوهامنا وتصوراتنا الخاصة المسبقة انطباع الناظرين إلى بطاقات (رورشاخ)[2] فنقع فيما وقع فيه نفر من المسلمين فتفاءلوا كثيراً، أو تشاءموا فيئسوا فماتوا غيظاً أو انقلبوا على الأعقاب.. علينا أن ننظر نظرات تحليلية احصائية موضوعية متفحصة، ولنطبق منجزات علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي على مجتمعاتنا العربية والاسلامية، فاذا مجتمعنا يتألف من فرد وأسرة وحي وقرية ومدينة وقطر، كما يتألف من مؤسسات عامة وخاصة مثل مؤسسات التعليم والإرشاد والإعلام والنقابات والنوادي والطوائف الدينية والعنصرية والقطاعات المدنية

---

(١) من كتاب (علم النفس الاجتماعي) لفؤاد البهي السيد — ص ٧٧. وانظر (علم النفس الاجتماعي) لأوتوكلينبرغ ترجمة الجمالي.

(٢) وهي بطاقات عليها بقع من (الحبر) غير محددة الاشكال يفسرها الناظر فيها تفسيراً معبراً عن نفسيته بشكل عفوي، وقد يختلف تفسيره قليلاً أو كثيراً عن ناظر آخر، مما يخدم التحليل النفسي.

والعسكرية وما إلى ذلك. واذا تركيب كل من هذه الأجزاء والمجموعات يختلف من واحدة لأخرى بحسب البيئة والثقافة والسلوك، فنها البسيط والمعقد، ومنها الوارد والشارد، ومنها الصحيح والعليل، واذا بنا نقف على تناقضات وعوالم طريفة كلما ازددنا بحثاً وتمحيصاً، مع العلم أن غايتنا أبعد من غاية العالم الاجتماعي الذي يكتفي بالوصف والاحصاء والتقرير فنحن نمضي معه حيثما يمضي تمهيداً لوضع الحلول وتأليف تركيبات اجتماعية أصلح وأفضل بعد الافادة من معطيات المجتمع الواقعية وقوانين الاجتماع المضطردة.

وفي طريقنا سنصادف انماطاً شتى من السالكين اللابسين لباس الاصلاح عن حسن نية أو سوء طوية، فالانقلابيون يعششون في الجيش، والانتهازيون يتهافتون على أبواب الحكام أو على أعمدة الصحافة وأجهزة الأعلام. على حين يربض الاحتكاريون في ميادين الاقتصاد، والماركسيون في الاحياء العمالية واكواخ الفقراء، فأين ميدان دعاة الاسلام بالضبط؟

منهج الدعاة:

الحق ان الاسلام رسالة عامة شاملة لا تنحصر بزمان أو مكان ولا بجنس أو فئة أو طبقة، وواجب دعاته ايضاح ذلك، وميدانهم هو المجتمع باسره. المجتمع العربي والاسلامي أولاً. والمجتمع الانساني الكبير ثانياً. وهذه مهمة شاقة لا ينهض بها الا الرجال أولو العزم والقوة البريئون من الأغراض والمطامع، الواهبون نفوسهم

لله. فاذا كان المجتمع كله ميداناً للدعاة فهل يعني ذلك ان يعملوا على قلة العدد والعدة في الجبهات جميعاً؟ أو يعني أن يختاروا بعض الميادين دون غيرها، أو بعض الأساليب دون سواها؟ والجواب على هذا السؤال يختلف من وطن إلى وطن، ويتأثر بامكانيات الدعاة من جهة وبظروف البيئة نفسها من جهة ثانية، حتى اذا كانت البيئة متقلبة لا سيما من الناحية السياسية لزم تلاؤم العمل الاسلامي وكل ظرف جديد لا تلاؤم التبعية ولا تلاؤم الانتحار، بل تلاؤم الذكي الذي يشق دروبه الوعرة بوعي وأناة، فاذا انسد بعضها انطلق في بعضها الآخر. يتيسر هذا التكيف الحي بسرعة للعاملين اذا كانوا على معرفة مسبقة بالعناصر التي يتركب منها المجتمع وباحتمالات تبدلها عاجلاً أم آجلاً. وعلى الرغم من ذلك تضطرد أمور عامة ثابتة، يحسن أن يفطن اليها الدعاة على اختلاف الأوطان منها ما يلي:

١ ــ ليذكروا ان عليهم اختيار ميادين اكثر جدوى وأبعد أثراً وأكثر ملاءمة لدعوتهم، وبالمقابل الا يغفلوا عن الميادين الأخرى التي يغزوها عدو خطير، وليكن دور الاسلام فيها على الأقل دور الدفاع.

٢ ــ المجتمع الاسلامي قد ابتعد عن الاسلام ببطء، ولن يعود اليه بسرعة أو بطفرة أو بقسر أو بمغامرة، بل بالتربية والاقناع، سيما وان الجيل المتقدم الذي نشأ على اصل معوج يصعب تقويمه، وهذه المقدمات تسلمنا إلى الاهتمام البالغ بالجيل الجديد الناشىء

وباجهزة التعليم ــ مناهج واساتذة وطلاباً للبناء، وباجهزة التوجيه والارشاد كالمساجد والنوادي الثقافية للدعم، وباجهزة الاعلام للتنشيط أو للدفاع على الأقل.

٣ ــ رصد الفرص والمناسبات لخطوات اجتماعية واسعة، ذلك لأن المجتمع على اتساعه وكثرة اجزائه وتعقيده يهتز ويتأثر بأدنى تبديل يطرأ على جانب من جوانبه كمثل الجسد الواحد، أو كمثل كفتي الميزان. فالتحكم بالمناسبة المواتية ضرب من التحكم بدقة المجتمع بأسره. والعقبة الكأداء قد تصبح فرجاً مفاجئاً، والقوة القاهرة قد تنقلب إلى قوة صديقة بحسن تدبر. فالانسان القديم حين اعترض النهر سبيله ولم يقدر على اجتيازه القى بجذع شجرة يابسة على صفحته وركبها. والذي يداهمه ثور هائج في مكان ضيق ربما حطم قرنيه بقفزة إلى أعلى أو يمين أو شمال.

٤ ــ التصدي لقضايا المجتمع الكبرى بعد استقراء مشاكل قطاعات المجتمع جميعاً، مثل الاستقلال والسلم والحرب، والاقتصاد والدستور.

٥ ــ تهيئة قادة اجتماعيين بالاصطفاء والاعداد للتخطيط أو للقيادة، فرب فرد اغنى ما لا يغنيه عدد كبير من الناس.

٦ ــ مراقبة حركات الخصم ومواقعه (الاستراتيجية) لا سيما المدارس التبشيرية والصحافة المشبوهة، والتشهير الدائم بها.

٧ ــ التوسع بالدراسات الاجتماعية لمعرفة نفسية الجماهير،

وتشكل الرأي العام، وصفات الزعيم ونفسية الجمهرة، وحركات الجماعة، وعوامل ازدهارها واندثارها.

٨ ـــ ليس المجتمع الاسلامي مادة غفلا أو بمعزل عن التيارات الخارجية بل هو كأي مجتمع آخر يتأثر بما حوله، وهو كباقي مجتمعات آسيا وافريقيا النامية الواقعة ضمن دائرة نفوذ الحضارة الغربية.

٩ ـــ تبني الدعوة إلى استقلال مجتمعاتنا عن مجتمع الحضارة الغربية في العادات والمثل العليا والاخلاق حفاظاً على شخصيتنا ووجودنا، وتمهيداً لانشاء حضارة جديدة اسمى من حضارة الغرب العرجاء.

ولعلي اخيراً اكون قد وفقت إلى لفت نظر اخواني العاملين إلى امر لم يغفلوا عنه كل الغفلة ولكنهم لم يقدروه حق التقدير ـــ وهذا حسبي.

أبعاد التّبديل الاجتماعي

إن التغيير كماً وكيفاً، صعوداً وهبوطا.. من علامات الكائن الحي ودلائل الحياة. فالطفل يشب فيزداد طوله ووزنه و يتغير صوته، والبذرة تنبت النبتة فتورق وتزهر وتثمر، وكذلك الشعوب والدول المتخلفة الآسيو ية والافريقية، المستقلة حديثا أو في سبيل الاستقلال والتي تشكل دول العالم العربي والإسلامي أكثريتها.. تشهد تغييرات وتبدلات اجتماعية كثيرة، لأنها ــحقاــ من الدول النامية، الطامحة الى مزيد من الاستقرار والرفاه والاطمئنان، ومن حولها دول كبرى سبقتها أشواطاً في مجالات العلم والصناعة والفن. ولكن ما هي هذه التبدلات، ولماذا تحدث، وكيف تحدث؟

ان التفاوت في سلم الحضارة يهيب بالشعوب والدول المتخلفة الى التقدم باطراح أسباب التخلف واتخاذ أسباب التقدم في مختلف المجالات: أي تبديل شيء بشيء، ووضع بوضع، ومنهج بمنهج ..لتحقيق التقدم المنشود وتوفير النمو المضطرد. والشكل الظاهر لهذه الخطوات هو التغيير والتبديل، على أن يكون التبديل انتقالا إلى ما هو أفضل. و يلاحظ على هذه المراحل وهذه التبديلات

ملاحظات عدة. فمثلاً قد يكون التبديل واعياً منظماً أو عشوائياً غائياً، وقد يكون سريعاً أو بطيئاً، وقد يكون عميقاً أو سطحياً، وقد يكون أصيلاً أو مستورداً. وذلك كله يرجع إلى القوى العاملة على هذا التغيير من قوانين التفاعل الحضاري العضوي .. إلى رغبة الأمم المتخلفة نفسها بالتبديل ومدى وعيها له ... إلى تدخل الأمم المتحضرة في مصير الأمم المتخلفة وإلى غير ذلك. وبوسعنا أن نقترح تصنيفات تقريبية لهذه التحويلات ولمراحلها المتباينة المتعاقبة عسى أن تجلي وتفهم فنقف منها الموقف الواعي المناسب.

١ ــ التبديل الشكلي:

هو أبسط أنواع التبديل وأسهلها، وأسرعها ظهوراً وزوالا، وأقلها فائدة، وأبعدها عن التأثير الفعال في خط السير الحضاري. ويمكن أن نجد له نماذج في مستويات عدة: ففي مستوى الحكم يبدو على شكل إنقلاب عسكري عرضي نتيجة نزوة طائشة أو طموح فردي أو تأثير أجنبي مباشر أو غير مباشر.. وفي مستوى التقاليد والعادات الاجتماعية يتجلى على شكل تبديل لباس بلباس أو عيد بعيد. وفي مستوى الوسائل والأدوات يظهر على نمط الإفادة العاجلة من منجزات الحضارة كاصطناع السيارة بدل الحمار للسفر والنقل. هذا النموذج من التبديل قد تكون له فوائد مباشرة قريبة، لكنها تظل محدودة، وربما يصبح خطراً محدقاً إذا ركب رأسه واستبد أو إذا تكرر وصرف الأنظار والعقول عن التبديل العميق الجاد بعيد الجذور والآثار.

التبديل القاصر:

أما هذا النوع فهو درجة أعلى من التبديل السابق في تركيبه وظهوره وزواله وآثاره. ويقع موقعا وسطا بين التبديلين الشكلي والحضاري، وهو على الغالب يعقب التبديل الشكلي في التسلسل الزمني، لأن الإعداد له يحتاج الى زمن وجهود وقوى أكثر من الأول. فالنوع الأول قد يقوم به فرد طامح أو فئة من الأصدقاء المتنفذين أو عصابة انتهازية أو ظرف عابر، على حين لا يتيسر أن يضطلع بالنوع الثاني القاصر إلا جماعة منظمة أو مؤسسة اجتماعية ذات روابط وخطط وأتباع. والذي جعل هذا النوع من التبديل قاصراً أو مغايراً للتبديل الصحيح سبب واحد أو أكثر من الأسباب التالية:

أ ــ سياسة القلب والتبديل لمجرد التبديل جهلا أو تحمساً أو حقداً وتقليداً ومرضاً.

ب ــ الخروج على سنة التبديل الصحيح باستعمال العنف، أو استعجال الثمرات، أو تخطي المراحل دون ضمانات.

جـ ــ قصور المنهج أو المخطط: مثل الاهتمام بجانب واحد من جوانب المجتمع، كدعم الاقتصاد دون الأخلاق، والجيش دون الثقافة، وطبقة خاصة دون المجتمع، والقوم دون الانسانية وبالعكس.

د ــ تخلخل القوى العاملة على التبديل مباشرة، لضعف الأواصر الداخلية، أو غموض الأهداف، أو تحكم المصالح والأهواء، أو قصر النظر.

هـ ــ تدخل عناصر أجنبية ثقافية أو غير ثقافية.

و ــ فقدان الأصالة، أو التحدد بحدود الحضارة المعاصرة وحدها وهي تتفكك. وهذا النوع من التبديل يكون عقبة بقدر ما هو مرحلة في سبيل التبديل الصحيح، وهو أشبه ما يكون بمرحلة المراهقة عند الإنسان، مرحلة التقلب والاندفاع والعنف والتطرف والتذبذب بين الاعتماد على النفس أو على الآخرين. وفي دول آسيا وأفريقيا لا سيما العربية والإسلامية نماذج كثيرة لهذا النوع والنوع الذي سبقه.

التبديل الحضاري:

هو أسمى أنواع التبديل وأعمقها، وأسلمها وأصعبها وأكملها، وأكثرها ثباتا، وأصلبها عوداً، وهو التبديل المنشود، وتسميته بالتبديل الحضاري خير ما يناسبه بكل ما في المصطلح من معنى وما ينطوي عليه من قيم وأبعاد ومميزات. مثل هذا التبديل يمكن أن يرصد في مستويين: عضوي وقصدي.

أما المستوى العضوي، فهو التفاعل البسيط العادي بين عالم الثقافة المتحضرة وعالم الثقافة المتخلفة عن كل صعيد وفي كل زمان ومكان وبأية مرحلة، كأنه أمر حتم لا بد منه ولا مفر ولا مانع يمنعه. وأثره يبدأ من سطح المجتمع المتخلف الى أعماقه يتوغل فيها شيئاً فشيئاً حتى يلتقي بالمستوى القصدي الذي يتحكم به أخيراً ويتمثله جذباً ودفعاً، ذلك لأن هذا المستوى العضوي من التبديل ينجم عنه ما ينجم عن كل تصرف ساذج لا يخضع للوعي والمقارنة والتمحيص والاختيار، أي بتعبير آخر يغدو مجالا لتسرب النافع والضار الى

المجتمع المتخلف، بانطباعه بعادة التقليد أو بما يحمله هذا التقليد من منجزات صالحة وطالحة: كالإفادة النافعة من معطيات الحضارة الغربية في الصناعة والعلم والتقنية وكالتقليد الضار للمفاسد الأخلاقية التي ضاقت بها الحضارة الغربية نفسها.

أما المستوى القصدي، فهو الطريق الذي تسلكه جماعة أو جماعات منظمة ذات مخطط شامل وأهداف حضارية، وقيادة ناضجة وقاعدة شعبية متماسكة ومجال بشري واسع. هذه الجماعة فيها ما في الفئات الآنفة الذكر من رغبة في التبديل، ولكنها تختلف عنها من أوجه عدة: فهي مثلاً تعرف المعركة التي تخوضها، فتسمي الأشياء بأسمائها (إستبدال حضارة هرمة آفلة بحضارة نامية جديدة) وتدرك أن التبديل الصحيح لا يكون بتظاهرة عاطفية عابرة أو انقلاب شكلي أو مخطط مبتور أهوج أو إراقة الدماء البريئة أو المغامرات أو استيراد أفكار جاهزة، بل بدراسة عميقة لواقع مجتمعها وإمكانياته، وكشف لكنوز الأصالة والبطولة والإيمان، وتمثل صائب واع لمنجزات الحضارة الغربية باختيار النافع الخالد من علم وصناعة واطراح الشائب من مفاسد أخلاقية وتفكيك إجتماعي وقحط روحي وجشع مادي وتمييز عنصري، ثم العمل على إنضاج تركيب حضاري جديد أصيل راسخ، يخطو بالإنسانية المعذبة وبشعوب آسيا وإفريقيا المتخلفة إلى آفاق السعادة والإطمئنان والسلام في الدنيا والآخرة، بتخليصها من آفاقها المزمنة وإمدادها من معين سائغ لا ينضب.

الأدب الحضاري

هذا المقال يتجاوز ــلعدة اعتباراتــ ذلك الخلاف المستحكم بين الادب الملتزم والادب غير الملتزم، وان كان الادب الحضاري هو الذروة المثلى للادب الملتزم، والحديث عنه دفاع عن الادب الملتزم في وجه من الوجوه.

والتعريف الاولي للادب الحضاري: هو ذلك الادب الذي مهد لظهور الحضارات الانسانية، أو رافقها منذ نشأتها، وساعد على اكتمالها وازدهارها. والمتأمل الواعي للذرى الحضارية التي شهدتها الانسانية، وما انطوت عليه من مدلولات.. يتعرف على الدور الفعال الحاسم الذي لعبه الادب الحضاري أولاً، و يقف على الخصائص الاساسية العامة لذاك الادب ثانياً.

أما توضيح الدور الفعال الحاسم الذي أداه الادب الحضاري في ظهور الحضارات وازدهارها فأمر يطول، و يغني عن ذلك ان نشير الآن إلى ان رسالات السماء إلى الارض كانت تؤدى بأقوال أو تعاليم أو صحف أو كتب، كما أن الثورات الاجتماعية الاخرى كانت تنتهج النهج نفسه. ولعل البحوث المستفيضة وحدها هي التي تستطيع ان تجزم بأن الشرارة الحضارية الاولى كانت

للادب، وان زيت الحضارات ومشكاتها عبر الاجيال والعصور هو الادب الحضاري.

وأما خصائص الادب الحضاري فيمكن حصرها في عدة خصائص بعد الرجوع إلى أدب الحضارات المعاصرة والسابقة والتأمل فيها وتمييز الصحيح والزائف من خصائصها والتأليف بينها. ولعل اهمها سبع: (الجد ـــ الهدف ـــ الصدق في العاطفة والموقف ـــ الفن ـــ التنوع ـــ الرصيد الفكري ـــ التدو ين).

وخاصة الجد تعني أن ينصرف الادب للموضوعات الهامة، الموضوعات التي تقرر مصير الجماعات البشرية في العيش والكرامة والحرية. او بعبارة أخرى أن لا يساهم الادب في الاضرار بهذه الجماعات عن قصد أو دونما قصد، فالادب الذي يؤيد الظلم والاحتكار والفوضى لا يختلف كثيراً عن الادب المائع الذي يلهو للهو و يعبث للعبث فيغش النفوس و يصرفها عن المثل الاعلى أو عن حل المشكلات الاجتماعية.

والجد وحده لا يكفي اذ لا بد من وضوح الهدف وتميزه وتفرده لكي تجتمع عليه الجهود الجادة، فلا تتضارب أو تتناحر أو تتبعثر أو تتيه. اما ان يكون جد بلا هدف او ان تتعدد الاهداف فذلك منتهى التضليل والضياع. فالاديب أو المصلح يعاني في مرحلة الجد والتأمل حالة من الحيرة، فان لم يحدد هدفه، ان لم يميز البداية والنهاية او الغاية، ضاع في القطيع الهائل او اعتزل. بل نستطيع ان نوسع دائرة الجد فننفي صفة الجدية عن أدب جدي لا هدف له

وان نقبل أدباً يتهكم على الطواغيت او الامراض الاجتماعية أو التقاليد الفاسدة أدباً جاداً.

ولما كانت قيمة الافكار تناط بأصحابها، بحماستهم لها، باستمرارهم عليها، بالتزامهم لمضموناتها، بتضحيتهم لها: فيظهر صدقها بصدق عواطفهم وصدق مواقفهم. ولما كانت الاسواق تجمع اعمالاً ادبية كثيرة متباينة في مجتمع واحد وعصر واحد، فلا يميز الغث من الثمين الا الصدق، ولما كانت الافكار الحضارية تستدعي ردود فعل عكسية إلى جانب الردود المواتية، فيكون البقاء للأصدق.. للحق.. وجب ان يتميز الادب الحضاري بالصدق في العاطفة المتأججة الدائمة والموقف الشريف الصريح، وهل يبقى شيء من الجد حين يتخلى صاحبه عنه من الداخل أو الخارج، بينه وبين نفسه او بينه وبين الناس.

والفكرة التي تتمتع بالجد والصدق وتحدد الهدف (أو بما يؤدي إلى جميع ذلك) ليست قوية قوة الفكرة التي تخطر بحلية الفن وحلته، ولا تدخل مداخلها في القلوب والآذان والافواه، ولا تخلد خلودها مع الايام، فالعرب الذين سحروا بالقرآن الكريم كانوا يعرفون مواضع السجود في الشعر فيسجدون لها، وقد اغواهم الشعر وصرفهم عن الاسلام حين من الدهر. والفن لا تهبط قيمته في الادب الحضاري ـــ وان كان وسيلة من وسائله، لان اكتمال الجانب الفني في الادب الحضاري كمال لهذا الادب نفسه، وكان

القرآن يتوسل إلى القلوب والعقول بالفكرة القوية والفن المعجز معاً فاذا اضفنا إلى الخاصة الفنية البيانية خاصة التنوع في الاشكال والقوالب (كالخطابة والقصة والشعر والمقال..) وفي الموضوعات فقد اتينا على غاية المنحى الجمالي في الادب الحضاري، لان تنوع الاساليب والقوالب والموضوعات مما يفتح السبل للافكار و يقرب الشقة بين الناس والادب ويحببه اليهم على قدر عقولهم واذواقهم.

أما الخاصة السادسة فهي الرصيد الفكري، وهذه الخاصة من الاهمية بمكان في أدب ينشر الوعي و ينبه الافئدة والابصار، ويمهد لانقلاب اجتماعي جذري أو لاتجاه حضاري يخرج بالامة من واقعها الهابط الخامل الجاهل. ولا ينافس هذه الخاصة في اهميتها وفعاليتها الا الخاصة الفنية التي سبق ان تحدثنا عنها، ذلك لانهما لحمة الادب الحضاري وسداه، تنافح كل واحدة منهما عن الاخرى. وليس شرطاً في الرصيد الفكري ان يكون على قدر واحد من الكثافة في جميع الاعمال الادبية، لكنما يشترط فيه — مهما كانت درجة كثافته بين عمل ادبي وآخر — ان يكون فكراً صحيحاً عملياً بناء، لا فكراً مريضاً سوداو ياً أو جدلياً سفسطائياً، أو خيالياً متطرفاً. واسمى ما يبلغه الرصيد الفكري من الكمال حين يكون فكراً يقينياً منزلاً من عند الله أو معتمداً على الفطرة الانسانية الراشدة.

وتلوذ بهذه الخصائص السابقة خاصة سابعة لا يستغني عنها الادب الحضاري الذي وجد ليعمل و يؤثر باستمرار على مر العصور

والاجيال الا وهي التدوين، ومن التدوين يتفرع النشر والتوزيع وحسن العرض.

فالادب الحضاري: أدب جميل، أدب هادف، أدب جاد، أدب صادق، أدب معقول، أدب خالد.

صورة أدبية
من صور المعركة الحضارية

"١"

يمر العالم العربي والعالم الاسلامي اليوم بمرحلة هامة من مراحل الصراع مع الحضارة الغربية، وهي مرحلة ما بعد الاحتكاك المباشر التي ستتمخض عن نتائج حاسمة. والادب المنشود اليوم شعراً أو نثراً هو المرآة التي تعكس صوراً لهذا الصراع فتجلوه وتبرزه، أو تساهم فيه رائدة وموجهة. وبين أيدينا الآن قصيدة «راهب الحقل» للاستاذ الشاعر محمود غنيم، المنشورة في العدد (١٠٢٠) من مجلة الرسالة الصادرة في القاهرة بعد احتجاب طويل. هذه القصيدة عمل أدبي من الاعمال الادبية الاسلامية التي تمثل المرحلة الحضارية التي نعاصرها.

الوحدات الفكرية:

تتمتع قصيدة «راهب الحقل» بوحدة الموضوع، اذ تتحدث عن الفلاح في الريف، وما يمت إلى هذا الفلاح.. ولكن أي فلاح؟ في أي مكان يعيش؟ وفي أي زمان هو؟

في القصيدة فكرتان أساسيتان تتخللها أفكار أبسط. فالفكرة

الاولى تعرض لنا الفلاح المصري في بيئته، ثم تعقد مقارنة بين حياته وحياة أهل المدينة عبر مشاهد متتابعة. أما المشهد الاول فيرسم لنا صوراً لإيمان هذا الفلاح الفطري:

راهب خط في القرى محرابه
بين شط الغدير واللبلابْ
عاش للحقل والنبات فكانا
دينه في حياته وكتابه
عرف الله فطرةً لا اكتساباً
فرجا عفوه، وخاف عِقابه
ما احتواه في الله شكٌّ ولا طو
لُ التحراي عنه أثار ارتيابه
حسبُه أنَّ كل شيء بهذا الـ
كون يُومي اليه بالسبَّابه
عرف اللهَ في الطبيعة عطفاً
وحناناً وقوَّة غلاَّبه

أما المشهد الثاني فيقلب طرفنا في صفاته: من صلابة عود:

من قواها استمدّ قوة زندي
ـهِ ومن شمسها استعار خِضابه

ورقة طبع:
رب طبع من الغدير استقاه
فهو ينساب في الحياة انسيابه

وحب للارض:

منح الارض لا الملاحَ هواه
فهو صب بها عميق الصبابه

ودأب على العمل في الشباب:

كادح في شبابه ما قضى في
مسرح اللهو والمراح شبابه

وقوة ووقار في الشيب:

وإذا شاب لم يزل عوده كالنبـ
ـع فيه بقية من صلابه
يلبس الشيبَ هالةً من وقار
لا الضَنا شانَه ولا النقصُ شابه

وطهارة ثوب:

لم يُزيّنْ ثيابه النقشُ لكن
زيَّن الطهرُ والعفاف ثيابه

وازرقاق في العيون:

زرقة اللون في العيون وأخرى
في السماوات زانتا جِلبابه

أما المشهد الثالث فيمضي بنا إلى عالمه النفسي، فهو مطمئن البال:

وإذا خاف من حساب عسير
ذو ثراء فما أخفّ حِسابَه

آمن وادع:

يحسد القصر كوخه رب كوخ
هو للأمن والسلام مثابه
أين عش رفّ النعيم عليه
من قصور رانت عليها الكآبه

تطربه موسيقى الحمائم والسواقي:

القماري من حوله والسواقي
تلك عود وهذه شبّابه

وهو قانع راض:

لم يؤرقه في مناط الثريا
مطلبٌ راح يرتقي أسبابه
مكتف من طعامه بكفاف
قانع من شرابه بصبابه
رضيتْ نفسه فعاش سعيداً
ولقد يسعد الرضا أصحابه
في سكون القرى ينام و يصحو
ما له في المدائن الصَّخّابه

وفي المقارنة بين حياة هذا الفلاح وحياة أهل المدن يشير الشاعر إلى ضحايا المدينة:

أنا من ضاق بالحواضر ذرعاً
وأواها فحطمت أعصابه

كـم لهـا كـالملاح والـراح صرعـى
خـدعتهـم أضـواؤهـا الخـلاّبـه

كما يحدثنا عن مدرسة الفلاح وعلومه الفطرية:

حـسـب هـذا الأمـي أرض بـراح
هـو في لـوحـهـا يجـيـد الـكـتـابـه
خـامـل مـن يـراه غير نـبـيـه
وجـهـول مـن بـالجـهـالـة عـابـه
هـو لا يـرتقي المـنـابـر لـكـن
فـأسـه في الـثـرى تجـيـد الخـطـابـه
لـو تـرى مـا يخـط محـراثـه في
أرضـه قـلـت آيـة في الـنـجـابـه
إن للـكـون مـعـهـداً لم يـشـقّـف
بـدواة ومـرقـم طـلاّبـه
لم يـسـجّـلْ عـلـومَـه في كـتـاب
أو يـدوّنْ في مـعـجـم آدابـه

وعن صداقاته:

وبـه تـشـغـف الـسـوائـم حـبّاً
ويـراهـا دون الـورى أحـبـابـه
ربـطـتـه بـكـل ذات ثـغـاء
أو خـوار مـودةٌ بـل قـرابـه
رفـقـة يـأمـن الـصـديـق أذاهـا
لا بـدسّـاسـة ولا كـذّابـه

كـم سـقـتـه مـن الحـلـيـب زبـيـبـاً
أبـيـض اللـون لا يُـضـيـعُ صوابه

ثم عن صداقات أهل المدينة:
كـم صديـق مـن وجـهـه يـقطر البشـ
ـرُ ولا يـأمـن الـصـديـقُ غـيـابـه
ومـن الـنـاطـقين مـن هـو أضرى
مـن أفـاعـي وَكـرٍ ومن أسْدِ غـابه

وهنا يصل الشاعر إلى الفكرة الثانية التي تصور مأساة هذا الفلاح:
مـا لهـذا المـلاك أمسى وأضـحـى
وهـو نهـب مـقـسَّمٌ لِـعـصـابـه
صـرفـوا الراهـب الـبـتـول عـن اللـ
ـه وصـاروا مـن دونـه أربـابـه
أمـنَ الـعـدلِ أن يـعـيش أسير الـ
ـحقـل مـن شـابَ بـالـدمـاء ترابه؟
وهـو مـن أخـرج الـنُضـار مـن الأر
ض وصـفّـى مـن الـتـراب لُـبـابه
كـم جنى الـقـمحَ عسجداً وجنى القط
ـن لُـجـيـنـاً وبـاتَ يـلعقُ صابه
يـطـرق الخـيـرُ كـلّ بـاب إذا مـا
أثـمـرتْ أرضُـه ويـتـرك بـابـه

صراع بين حضارتين:

المدينة في بلادنا لا سيما العاصمة.. تكاد تكون نسخة طبق الاصل للمدن الاوروبية، بينما الريف عندنا أكثر تمثيلاً لشخصيتنا وثقافتنا بسبب احتجابه عن التأثيرات الاجنبية ومحافظته على الفطرة الانسانية (كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو يمجسانه)، لذلك كان بوسعنا أن نرى في الصراع القائم اليوم بين الريف والمدينة.. صراعاً بين عالمين، صراعاً بين العالم الاسلامي والحضارة الغربية إلى حد كبير. فالثقافة الأصيلة، ومنها الثقافة الاسلامية، تنطلق من الاخلاق فتؤمن بالله وتعتمد على الفطرة الانسانية الصافية القوية العاملة الدائبة المخلصة في اطار من العفة والجد وجو من السلام والامن والتعاطف مع عناصر الكون من انسان وحيوان ونبات. أما الثقافة الهرمة، ومنها ثقافة الحضارة الغربية، فيختلط فيها الحابل بالنابل بعد أن دارت الحضارة دورتها وأدت الاخلاق مهمتها، فمالت حضارتها إلى السقوط والاضمحلال، وأخذت تؤمن بالطاغوت من مال وأهواء، وتعتمد على المظاهر المصطنعة المتكلفة والمجتمعات الضعيفة المخمورة اللاهية الكسول، التي تعيش على جهد الآخرين وتمتص دماءهم وخيراتهم وتحتكرها بكل جشع وغرور وتعال وحقد على عناصر الكون الاخرى من انسان وحيوان ونبات. وهذه هي الحال إلى حد كبير بين الريف في بلادنا وبين المدن الكبرى، كما رأينا في هذه القصيدة. فالفلاح مؤمن بالله من خلال تجربته الريفية الفطرية، صلب العود، رقيق الطبع، محب لأرضه، مجد في عمله، وقور،

طاهر الذيل، سامي الطرف، باله مطمئن، وعيشه آمن وادع، وموسيقاه هديل القمارى وخرير السواقي [1]، غير جشع ولا طماع، بينما يضج ابن المدينة من صخبها وارهاقها للاعصاب ومن الضحايا المخدوعة ببريقها الزائف ولذاتها المحرمة. نعم ان الفلاح لم يدرس في مدرسة، لكنه مفن يرسم على لوح الطبيعة خطوطاً خضراء وحمراء وسوداء وصفراء، فيها البهجة والمتعة والغذاء، فمنذا الذي يجرؤ على تجهيله والغض منه، لئن خانته الفصاحة والبلاغة لقد أحسنت فأسه ما هو أجدى وأسمى. انها مدرسة الطبيعة العملية الفعالة، انها المدرسة الفنية الراقية التي ينادي بها اليوم كبار فلاسفة التربية وعلى رأسهم (جون ديوي) بعد أن استشرت السطحية والتقليد في الثقافة، واتسعت الهوة بين العلم والاخلاق، وقصرت أجهزة التربية والتعليم عن اللحاق بركب الحضارة، وعم القلق والتناقض والفوضى. انظر إلى هذا الفلاح كيف يتعاطف مع أغنامه وثيرانه حباً ومودة، ثغاؤها يطربه وشرابها يسكره. وانظر إلى أهل المدينة كيف يتدابرون و يتشاتمون و يتآمرون في السر والعلن، ثم لا ينسون أن يعكروا صفو حياة الفلاح فيسومونه سوء العذاب، و يسلبونه حريته، و يسرقون قمحه وقطنه ليتمتعوا بخيراتها دونه و يصبح نهباً للفقر والمرض والشقاء.

---

(١) ولعل هذا المثال يفسر لنا اتجاه الفقه الاسلامي إلى تحريم كثير من آلات الموسيق، لانها أدوات لهو صناعية تصرف الانسان عن التمتع بموسيق الطبيعة من خرير وزقزقة وهديل وثغاء وحفيف وهدير وعويل وعواء ومواء وزئير وغير ذلك من أنغام وألحان.. تذكره بنفسه وبخالقه وبنظام الكون.

الآفاق الفنية:

هذه الافكار الرفيعة قد سبكها الشاعر في قالب أرفع.. من منطق حلو، وموسيقى عذبة، وصور غنية، ومشاهد حية، والتفاتات عاطفية مؤثرة. فقد أحسن الشاعر فيما أحسن اختيار موضوعه والزاوية التي رصدها. ولئن عمد إلى الرمز أو لم يعمد لقد كان النص موحياً غنياً بالظلال والايماءات المعبرة عن الصراع الحضاري بين الريف والمدينة أو بين الشرق المسلم والغرب. واذا كان الفلاح عند الناس وعند رجال علم الاجتماع رمزاً لدرجة حضارية منخفضة، لأن مقياسهم بالأشبار لا بالافكار، فان الشاعر قد أغنى مضمون هذا الفلاح حتى بات أكثر تقدماً وسعادة من خروشوف وكنيدي معاً. ولا يخطرن في بال أن الشاعر قد انكفأ عن الحضارة نهائياً بتفضيله الريف على المدينة، بل انه تحول عن مظاهرها المتكلفة إلى صفاء الفطرة الذي وجده في الريف، وهذا التحول خطوة أولى نحو حضارة جديدة لو أمعنا النظر.

كما أن الشاعر قد وفق في توجيه الايقاعات النفسية، لا سيما تقسيمه النص إلى فكرتين رئيسيتين: الاولى حياة الفلاح السعيدة، والثانية انقلاب هذه الحياة السعيدة وانتقاضها. وقد عرض الفكرة الاولى خلال ستة وثلاثين (٣٦) بيتاً على حين أجمل الثانية في ستة أبيات وحسب. ذلك ليتسنى للقاريء أن يعيش مع الفلاح فترة أطول وأن يتجاوب معه في ايمانه وأخلاقه وبساطته وطهره وحمائمه وسواقيه وقناعته ومدرسته الريفية وصداقاته مع الاغنام

والثيران خلال المقارنة تلميحاً أو تصريحاً بالمدينة وأهل المدينة وزيف المدينة.. حتى يصبح القاريء فلاحاً، أو يحب أن يصبح فلاحاً. فاذا جاءت الفكرة الثانية المختصرة وصورت فداحة المأساة التي نزلت بالفلاح فعكرت صفو عيشه.. فانما تعكر صفو القارىء أيضاً، لانه قد تهيأ فكرياً ونفسياً وعاطفياً نتيجة ذاك العرض الفني المفصل الجميل لحياة الفلاح السعيدة.

هذه الطريقة النفسية في العرض لم يخطئها الشاعر ايضاً في عرضه للافكار الثانوية، بل زاد عليها، واعتمد على أسلوب المقارنة بين عدة متناقضات.. بين الريف والمدينة، بين الكوخ والقصر، بين الايمان والشك، بين الفطرة والاكتساب، بين الجد واللهو. والمقارنة ها هنا ملائمة كل الملاءمة للموضوع الذي هو في أساسه مقارنة بين عالمين متباينين: الريف والمدينة، مما اقتضى المقارنة بين أجزاء كل منهما، فناسب الكلام مقتضى الحال كما يقول البلاغيون بحق. على أن الشاعر لم يعتبط المقارنة اعتباطاً، بل اختار لها الملامح المميزة، والسمات البارزة في عالم الريف والمدينة. فالريف جمال وهدوء وايمان وجد وحب وقوة وقناعة. أما المدينة فتكلف وضجيج وشك ولهو وغيبة وخمول وجشع.

وهذه الملامح المميزة لكل من الريف والمدينة لم تسرد سرداً جافاً مجرداً على لسان مؤرخ أو فيزيائي، بل اقتطعت من الحياة صوراً ولوحات حية، فها هو ذا يصور لنا محراب هذا الفلاح ببساطة، كما نراه حين نمر به في أية ساعة من ساعات الصلاة:

راهب خط في القرى محرابَهْ
بين شط الغدير واللبلابهْ

و يقارن بين كوخه و بين القصور بصور تكاد تكون نقلاً أميناً للواقع:

يحسد القصر كوخه رب كوخ
هو للأمن والسلام مثابه
أين عش رف النعيم عليه
من قصور رانت عليها الكآبه
القماري من حوله والسواقي
تلك عود وهذه شبّابه

وها هو يبتكر صورة ذهنية مناسبة لدراسة الفلاح وثقافته:

هو لا يرتقي المنابر لكن فأسه في الثرى تجيد الخطابه
لو ترى ما يخط محراثه في أرضه قلت: آية في النجابه
إن للكون معهداً لم يثقّف بدواة ومرقم طلاّبه

فهو يشخص الفأس و ينطقها كأي خطيب بارع، كما يشبه المحراث بالقلم الذي يخط و يكتب، و يشبه الكون بمعهد كبير، ولعمري حقيقة هذا أم تشبيه، انه الا ثنان معاً، وهذا هو الابداع. ولا يقف خيال هذا الشاعر عند هذه الآفاق، بل يمضي بنا إلى أفق أرحب ألا وهو أفق الخلود.. فتتموج تجربته الشعورية اتساعاً

وعمقاً حتى تتعاطف مع عناصر الكون من نبات وحيوان محبة وصحبة وقرابة:

عاش للحقل والنبات فكانا ... دينه في حياته وكتابه
وبه تشغف السوائم حباً ... ويراها دون الورى أحبابه
ربطته بكل ذات ثغاء ... أو خوار مودة بل قرابه
رفقة يأمن الصديق أذاها ... لا بدسّاسة ولا كذّابه
كم سقته من الحليب زبيباً ... أبيض اللون لا يُضيع صوابه

أما العاطفة فهي مبثوثة في النص بثاً خفياً شفافاً، ينم عنه التصوير الحي للريف وحياة الفلاح الهانئة، وذلك التنديد بالاقطاع وحياة المدن. وقد يفلت الزمام من الشاعر أحياناً، وحق له ذلك، فيلتفت الينا لينبهنا التفاتات مباشرة ويهتف بأعلى صوته:

أنا من ضاق بالحواضر ذرعاً
وأواها فحطمت أعصابه
كم لها كالملاح والراح صرعى
خدعتهم أضواؤها الخلابه

ويتساءل ويتعجب تساؤلاً مريراً مباشراً يستنكر فيه مأساة الفلاح:

ما لهذا الملاك أمسى وأضحى
وهو نهب مقسم لعصابه؟

صرفوا الراهب البتول عن اللـ
ـه وصاروا من دونه أربابه

ثم يصرخ صرخات محام عنه، مخلص له، واع لقضيته، متحمس لها:

أمن العدل أن يعيش أسير الـ
ـحقل مَنْ شابَ بالدماء ترابه؟
وهو من أخرج النُضارَ من الأر
ض وصفّى من التراب لُبابه
كم جنى القمح عسجداً وجنى القطـ
ـن لجيناً وبات يلعق صابه
يطرق الخير كل باب إذا ما
أثمرت أرضه ويترك بابه

وأخيراً هل أسف الشاعر في ألفاظه أو تراكيبه، هل فترت قافيته هل اضطربت موسيقاه، هل ترنح ترنُح أكثر الشعراء المحدثين الهاربين من العمود الشعري الاصيل عجزاً وجبناً، كلا انه سجل للعمود الشعري وللتعبير الفصيح الجزل الواضح المشرق نصراً جديداً، فأثبت مرة أخرى أن العمود الشعري يتسع للتجديد في الموضوع والافكار والصور والعرض والموسيقى، بل هو أقدر من غيره على ذلك، فالمشكلة مشكلة شعراء لا مشكلة عمود.

وهكذا كانت هذه القصيدة صورة جميلة من صور المعركة الحضارية، فيها الجمال الفني والغنى الفكري على حد سواء.

بين محمود غنيم وأحمد حجازي:

بعد فراغي من دراسة هذه القصيدة تذكرت ديوان «مدينة بلا قلب» للشاعر أحمد عبد المعطي حجازي، فتصفحته، وتصفحت المقدمة التي كتبها له الاستاذ رجاء النقاش، فخطر لي عقد مقارنة بين هذين الشاعرين المصريين المعاصرين اللذين عبرا عن تجربة شعورية واحدة وهي أزمة الريف والمدينة.

ولد أحمد عبد المعطي حجازي في الريف المصري وتطبع بطباعه وصفاته، فلما شب ودخل القاهرة صدم بعالم جديد «حيث التشتت والقلق والوحدة والانفراد وتمزق العلاقات الانسانية وقسوتها في الحب والصداقة وعلاقة العمل... في المدينة حيث هذا كله يحن (ابن الريف) إلى الحياة الوادعة الطيبة الضيقة المنسجمة مع بعضها في معظم القضايا والعلاقات» فيقول الشاعر في قصيدة (لمن نغني):

وأنا ابن ريف
ودعت أهلي وانتجعت إلى هنا
لكن قبر أبي بقريتنا هناك، يحفه الصبار
وهناك ما زالت لنا في الافق دار!
... أين الطريق إلى فؤادك أيها المنفي في صمت الحقول؟
لو انني ناي بكفك تحت صفصافه
أوراقها في الافق مروحة... خضراء هفهافه
لأخذت سمعك لحظة في هذه الخلوه،

وتلوت في هذا السكون الشاعري حكاية الدنيا
ومعارك الانسان والاحزان في الدنيا.

ثم يقول في قصيدة (مقتل صبي):

الموت في الميدان طن
العجلات صفرت، توقفت، قالوا: ابن من؟
ولم يجب أحد
فليس يعرف اسمه سواه
ولم يجب أحد
فالناس في المدائن الكبرى عدد
جاء ولد
مات ولد

ومن الواضح أن الشاعرين يرميان عن قوس واحدة في الحنين إلى الريف والتقزز من المدينة على اختلاف في المدرسة الشعرية، هذا يلتزم العمود وذاك يتحرر منه، هذا يسكب تجربته في قصيدة وذاك يسطرها في ديوان.

والغريب أن يفوت على الاستاذ رجاء النقاش دلالة الرمز والحنين إلى الريف، فيظنها دعوة مباشرة إلى الريف كما هو في الواقع تماماً، لا عودة إلى الفطرة الانسانية الصحيحة منطلق الحضارة الاول الذي انحرفت عنه الحضارة الغربية.. فيقول: «ولقد يكون هذا الانسجام الموجود في حياة الريف انسجاماً سلبياً معتمداً على عناصر من الوهم والخرافة وبطء الحياة، ولكنه على أي حال يمثل شيئاً بالنسبة لشاعرنا.. شيئاً يفتقده..» والاغرب

من ذلك أن يتذكر الناقد ما يقابل هذه الظاهرة عندنا في أوربا والغرب، ثم يغالط ويضع العربة أمام الحصان ـ كما يقال ـ فينسف الظاهرة من أساسها التي ستنسف الحضارة الغربية التي هو حريص عليها ـ كما يبدو ـ فيقول: «والحنين إلى الريف هو شعور شائع لدى الفنانين الذين يعبرون عن القلق والضيق بالحضارة العصرية، فالشاعر الانجليزي الامريكي العالمي (ت. س. اليوت) يعبر في شعره كثيراً عن الحنين إلى العالم الزراعي، بل والحنين إلى عالم العصور الوسطى حيث لا صناعة ولا ضجيج ولا (رجال جوف).. بل انسجام وهدوء وطبيعة انسانية متصلة بالمظاهر الكونية المختلفة..» أما نحن فنفهم من مدرسة (ت. س. اليوت) اتجاهاً لكشف زيف الحضارة الغربية ودعوة إلى حضارة جديدة ليست حضارة العصور الوسطى المظلمة في الغرب، بل العصور الوسطى المشرقة في الشرق.. وهي ليست تلك العصور بالذات بل القيم والمثل العليا التي سادت فيها.

صورة أدبيَّة
من صور المعركة الحضارية
"٢"

في مقال سابق عرضنا قصيدة «راهب الحقل» للشاعر محمود غنيم، ولاحظنا انها صورة ادبية معبرة للمعركة الحضارية التي تدور رحاها في مجتمعنا العربي والاسلامي: صورة الريف، ريفنا بما يزخر من جمال وهدوء وايمان وجد وحب وقوة وقناعة، تقابلها صورة المدينة التي تمت إلى الغرب بأكثر من سبب لما يضطرب فيها من تكلف وضجيج وشك ولهو وغيبة وخمول وجشع، وهي لا تأنف عن ان تلقي ظلالها السود على الريف بين حين وآخر فتنغص عيشه الوادع.

اما في هذا المقال فسوف نتأمل صورة أخرى تنطوي على وجه آخر من وجوه هذه المعركة الحضارية وتمثل (الواقع في حياة المدن الكبرى حين يدخل غمارها الشاب قادماً من البلدة الصغيرة او القرية البسيطة.. هذه الحياة الصاخبة تخلب ذلك الشاب بزخرفها وفنون لهوها، والوان عبثها، تجتذبه فيرتمي بين أحضانها. و يلقي

بقياده اليها فتذهب به في مزالق الضلال كل مذهب. ثم تسفر هذه الحياة عن وجه كالح، وتنقشع نشوتها عن صحو مضى اوانه... فاذا هنالك افلاس في أحد ثلاثة: في المال، أو الصحة، أو المستقبل. وكثيراً ما أعلن الافلاس في الثلاثة جميعاً، وهنالك الفاجعة الأبدية)[1].

هذا ما سطره الشاعر المرحوم ابراهيم طوقان، وهو يقدم لقصيدته «مصرع بلبل» ثم يتابع فيقول: (اما البلبل في هذه الحكاية فرمز الشاب المخدوع، واما الوردة فرمز بائعة اللهو والعبث، واما الروض فهو رمز الحانة أو الملهى). وقد تكون هذه الحكاية الرمزية اوضح اذا تذكرنا انها نظمت إبان الصراع العارم بين عرب فلسطين من جهة و بين اليهود والانكليز قبل النكبة من جهة ثانية. ايام كان الصراع في جوهره حضارياً. يتسم بالسرعة والعنف: فالعرب ريفيون اميون، عزل سذج، واليهود والانكليز مستعمرون متسلحون بأسلحة المدنية الحديثة من قوة وعلم ومكر ودعارة ولصوصية. فلنسمع طرفاً من قصة البلبل والوردة، ولنقرأ خطوط النكبة التي تنبأ بها الشاعر قبل ان تقع. ان البلبل في الروض الجديد يستشعر الغربة فيقلق ويحزن:

ومضى البلبل الغريب يطوف
الروض حتى انزوى محيا النهارِ

(١) ديوان ابراهيم ــ الطبعة الاولى ــ ص: ١٨٠.

راح يـأوي إلى الـغـصـون ولـكـن
كـيـف يـغـفـو مـشـرِدُ الافـكـارِ

ولكن الروض داني القطوف، غني بالثمار والازهار:

كـان في الـروض فـوق مـا يـتمنى
مـن فـنـون الا ثـمـار والازهـار

وهو كذلك ينذر بالحتوف. خال من الطير الا بقايا اعشاش ومناقير:

غير ان لـيـس فـيـه طير يـغني
اي روض يحـلـو بـلا اطـيـار
وسـرت فـيـه رعـدة حين لم يلـق
سـوى دارس مـن الاوكـار
وبـقـايـا نـواقـف رخـم الـموت
عـلـيـهـا، مخـضـب الأظـفـار
أي خطـب اصـابـكـم مـعشر الـطير؟
ومـاذا في الـروض مـن اسـرار؟

ترى إلى متى يستوحش البلبل وله من تغريده ما يسليه، وفي الدوح ما يغريه:

نسي الـطير همـه حين غنى
قـلما يـسـتـقـر هـم الـطـروبِ
ألـف الـروض مـغـرداً وتـولى
عـنـه في دوحـه شـعـور الـغـريـب

ليبحث عن رفيق، ولو كان وردة تحميها اشواكها الجارحة:

واذا (وردة) تفيض جمالاً
تتهادى مع النسيم اللعوبِ
قد حمتها اشواكها مشرعات
حولها دون عابث او غضوب

انها جميلة وفيها من الاغراء ما فيها:

تمنح العين حين تبدو. وتخفي
من ضروب الاغراء كل عجيب

وانها لجديرة بان تحب وتطلب، وبان يسهر البلبل في هواها ويتعب، وبان يقبل عليها مغرداً متودداً وان اعرضت عنه:

صارت الوردة الخليعة للبلبل
هما ومأربا يُشقيهِ
حسرتا للغرير، اصبح كربا
ما يلاقيه من دلال وتيه
شفّه السهدُ واعتراه من
الحب سقام مبرح يضنيه
من رآها، وقد تحامل يهفو
نحوها، كيف اعرضت تغريه
من رأى روحه تسيل نشيدا
لاهبا، لوعةُ الاسى تذكيه

اما آن للوردة ان تجود بوصال البلبل المتيم:

مـن تـرى عـلـم الـبـخـيـلة حتى
سـمـحـت ان يـقبـل الطير فـاهـا
لم يـصـدق عـيـنـيـه حتى اطلت
واطـالـت في خـتـلـه نجـواهـا

لقد تكرمت، ولكن ما وراء جود البخيل. واغراء اللعوب. وعناق المسربل بالشوك؟:

ضـمـهـا الطير مطبقاً بجناحيه. وهمت بثغره شفتاها
لم يـمـتـع بـنـشـوة الحـب حتى
اشـرعـت شـوكـة تـلـظى شـبـاهـا
اوردتهـا قـلـبـاً اذا رف يـومـاً
خـافـقـاً للـهـوى. فـذاك هـواهـا
كـرعـت في الـدم الـبـريء فـلما
عـكـسـتـه وهـاجـة وجـنـتـاهـا
نـظـر الـطير نـظـرة اعـقـبـتـهـا
روحـه طـيَّ شـهـقـة مـعـنـاهـا:
وردة تبهـر الـعـيـون ولـكـن
كـثـرة الـشم قـد اضـاعـت شـذاهـا

يا للطعنة النجلاء تسددها الوردة الغادرة إلى القلب الذي أخلص لها لتمتص دماءه الفتية القانية، ولم تدافع عن البلبل

الشهيد أغاريده ولا براءته ولا اخلاصه، فقد غض طرفه عن أعشاش اترابه الطيور وعن الأشلاء والمناقير المبعثرة الدامية.

وكأن هذا البلبل الغريب لم يتصل خبره باخ له. فتى وسيم جسيم، شريد طريد روى لنا الشاعر الاخطل الصغير حكايته في قصيدة «المسلول» [1] ووصف ما كان له من شأن مع هذه الوردة الحسناء التي تصطاد الفتيان وتحسن اختيارهم، ثم ترديهم واحداً واحداً:

حسناء اي فتى ترد تصدِ
قتلى الهوى فيها بلا عددِ
بصرت به، رث الثياب بلا
مأوى، بلا اهل، بلا بلد
فتخيرته وكان شافعه
لطف الغزال، وقوة الاسد

وها هو يظنها صيداً ثميناً، وراءه المال والجمال واللذات والامان بعد الظمأ والحرمان:

ورأى الفتى الآمال باسمة
في وجهها، لفؤاده الكمد
والمال ملء يديه. ينفقه
متشفياً، انفاق ذي حرد..

---

(١) شعر الاخطل الصغير — طبعة (١٩٦١) — ص: ١٢٤.

ظــمآن، والأهــواء جــاريــة
كـالـسلـسبـيـل، متى يُـرد يَـرد
روض مــن اللــذات طــيـبــة
اثـمــاره، خــلــو مــن الـرصـد
مــاضـيــه لـو يـدري بحـاضـره
ـــ رغـم الاخـوة ـــ مات من حسد

ثم تمضي سنة، ويمضي معها الشباب المعهود وذلك الوجه الصبيح:

سـنـة مـضـت، فـاذا خـرجـت إلى
ذاك الـطـريـق بـظـاهـر الـبـلـد
ولــفــت وجـهـك يمـنـة، فـتـرى
وجــهــاً متى تــذكــره تــرتــعـد

لماذ؟ ومن هذا الرجل الهزيل المتلجلج الالفاظ المبهور الانفاس، وقد جعدت الخمرة خديه وقرح السهر جفنيه، فأصبحت عيناه الغائرتان كسراج في كوخ وقد باخ ضوؤه، وما هذه الاصابع المضطربة كأوراق الشجر الخريفي اذا نقرتها حبات البرد. لماذا يتمهل في سيره كأنه يمشي على الشوك؟ يا لطيف!! انه يدلق الدماء من فيه بين حين وآخر، فعلى منديله منها قطع اشبه بالكبد المتفطرة، وبديباجات الرثاء، تنذره بموت عاجل، وما له من معين ولا طبيب:

هـذا الـفتى في الامـس.. صار إلى
رجـل هـزيـل الجـسـم مُـنـجـرد

متلجلج الالفاظ مضطرب
متواصل الانفاس مطرد
متجعد الخدين من سرف
متكسر الجفنين من سهد
عيناه عالقتان في نفق
كسراج كوخ نصف متقد
تهتز أنمله فتحسبها
ورق الخريف اصيب بالبرد
يمشي بعلته على مهل
فكأنه يمشي على قصد
ويمج أحياناً دماً فعلى
منديله قطع من الكبد
قطع تآبين مفجعة
مكتوبة بدم بغير يد
قطع تقول له: تموت غداً
واذا ترق تقول بعد غد
متوحد، اما الحبيب فمذ
خاف انتقال الداء، لم يعد

لا راحة لهذا الفتى المسكين الا بالموت، فليمت وليدفن منفرداً مستوحشاً، ولتكتب على ضريحه العاري عظة تكون عبرة لمن يعتبر: هذا قتيل امرأة فاجرة غادرة:

مات الفتى فأقيم في جدث
مستوحش الارجاء منفرد

مـتـجـلل بـالـفـقـر، مـؤتـزر
بـالـنـبـت مـن مـتـيـبـس ونـدي
وتـزوره حـيـنـاً فـتـؤنـسـه
بـعـض الـطـيـور بـصـوتهـا الـغـرد [1]
كـتـبـوا على حـجـراتـه بـدم
سـطـراً بـه عـظـة لـذي رشـد [1]
هـذا قـتـيـل هـوى بـبـنـت هـوى
فـاذا مـررت بـاختهـا فـجِـدِ [1]

ويمر الشاعر عمر ابو ريشة بأختها «شقية» [2] مرور من قرأ السطر الدامي على ضريح المسلول، فتثير فيه الاعجاب والاستغراب، فيود لو يستنطقها و يعرف سرها المكنون منها وحدها والدوافع التي دفعتها، والسبيل التي سلكتها، والى أين ستنتهي بها و بالناس.. ها هي تعلن له: انها كانت في الاصل طاهرة الذيل:

طلعت على الايام والطهر حارسي
يحوك على عطفي جلبابه القدسي

ولكن الغرور اصمها عن هتاف العاشقين المخلصين واطراء المعجبين المتوددين:

---

(١) هذه الابيات الثلاثة محذوفة من ديوان الشاعر الجديد (شعر الاخطل الصغير) وقد رويناها عن ديوانه «الهوى والشباب».

(٢) من عمر أبي ريشة ــ شعر ــ طبعة (١٩٤٧) ــ ص: ١٨٧.

وضـج بـاعـطـافي الـغـرور فـلـم الـن
لـصـرخـة ولهـان تمـخـض بـالـيـأس
كنـرجسـة في الحـقـل تـلثم سـاقـهـا
تـغـور مــن الازهـار طـيـبـة الـغـرس

وليس أقتل للغرور من الكبرياء والانانية اذا اجتمع بها:

ولــكنهـــا والــكــبــريــاء تهـزهـا
ابـت ان تـرى في غـيـرها رفعة الجنس
حـنـت رأسـهـا كيا تـقـبـل ظـلـهـا
غــروراً فـاتـت وهـي محـنـيـة الـرأس

فلتذق طعم الاوحال ولتجرب حظها في امواج الدم وبحر الشقاء:

وضـاقـت بـي الـدنـيـا فـهـمـت طريدة
افـتـش عـن سـعـدي فيلطمنـي نحسي
فـمــا لاح لي الا دم مــتــلاطــم
ففي لجــة اغــدو، وفي لجــة أمسـي
أرى عـنـده للـثـأر مـن فـتـكـة الـورى
منـاهـل تنسي مـا اجـرع مـن بـأسي

إذن قد انتهت إلى الانتقام الظالم، إلى التشفي بضحاياها من الفتيان الابرياء. إلى نفث السم الناقع، والوباء الفاتك، كي تموت مرتاحة النفس!

فـرب فتى مـا دنـس الخـزي قلبـه

نـصبـت لـه سـهم الاساءة في القوس

تمـطـّـيت لاسـتغـوائـه فـتـثـاءبـت

بـعـيني افـواه الـدعـارة والـرجـس

اذا أنّ هـزت رعـشـة الانـس اضلـعي

وافـرحني ان لاح في صـفـرة الورس..

فـصـرت اذا مـا اشـتـد دائي تـركـتـه

لـيعدي، وان ابصرت من خلفه رمسي

كما الـنحلة الغضبى لدى وخز خصمها

تموت.. ولـكـن وهـي مرتاحة النفس

لا عجب في ذلك، لا عجب في أن يهوي البلبل الغريب صريعاً، وان يموت الشريد الشديد مسلولاً وان يسقط كل من تغويه الشقية شهيداً. إنها سنة ثابتة، ومأساة واحدة، قد تتعدد الاسماء، وتتنوع الصفات وتختلف الامكنة والازمنة، وتبقى النتيجة هي هي. بلبل ريفي جميل شاب بريء ساذج تصطاده وردة حضرية، ظاهرها يغري. ومخبرها يردي، خليعة محنكة مصاصة للدماء. لا فرق بين أن يكون المصيد ضعيفاً أو عنيفاً، غنياً أو فقيراً، وأراداً أو صادراً ولا فرق بين أن تكون المصطادة طاهرة في الأصل أو مدنسة، مضطرة أو عامدة، عادية أو سادية، صحيحة أو مسلولة. وهكذا يزحف الريف إلى المدينة شيئاً فشيئاً و يذوب فيها، فإذا أبطأ توجهت إليه بنفسها وابتلعته.

أما لهذا الليل من آخر، أما لهذه الموجة العاتية من صخرة

تتصدى لها، من طود شامخ تركع له؟!

بلى ما دام فتيان الريف قد تساقطوا شهيداً في اثر شهيد، فإن ابن المدينة لقادر على أن يثأر لهم. فيؤدب الجانية. ها هو الشاعر نزار قباني، يتحداها قائلاً «لن تطفئي مجدي»[1].

ثـرثـرتِ جـداً.. فـاتـركـيـنـي
شيء يمـزق لي جـحـبـيـنـي

لقد وعى المأساة، وعرف الثمن الباهظ الذي سيكلفه، فليُنهِ هذه القصة المشئومة:

لا تسألـيـني كيف قصتـ ـنا انتهت، لا تسألـيني
هـي قـصـة الاعـصاب. و الأفـيـون، والـدم والجـنون

وليترك الآثمة تحترق بنارها التي أوقدتها لحرقه:

حـاولت حـرقـي فـاحـترقـتِ بـنـار نـفسكِ فـاعـذريـنـي

وليتركها لأنانيتها التي حالت دون انطلاقه إلى العلا:

ورأيـتـني ـ اهـب الـنـجـوم محـبـتـي فـوقـفـتِ دونـي

كـم بذل لها من روحه ومن اخلاصه وفنه وعطفه لتسمو معه، فما زادت الا ان سخرت منه، وتعلقت بالارض:

حـاولـتُ انْ أعـطـيك مـن نـفسي ومـن نـور الـيـقـين

(١) قصائد (نزار القباني) ـ طبعة ١٩٥٨ ـ ص: ١٣٥.

فسخرتِ من جهدي ومن ضربات مطرقتي الحنونْ
وبقيتِ رغم اناملي طيناً تراكم فوق طين

فليمحُها من ذاكرته وليربأ بنفسه ان يسجد لها ثانية:

لا كنتِ شيئاً في حسا ب الذكريات، ولن تكوني
شفتي سأبترها.. ولن أمشي اليكِ على جبيني

حقاً لقد انتصر عليها نزار قباني وتجاوزها، لكنه لم يتجاوزها إلى الافق الرحيب إلى طاهرات الذيل، إلى ملائكة الارض، بل إلى «اوعية الصديد» و «إلى ميتة» إلى «حبلى» والى ذات «الجورب المقطوع» والى «اجيرة» والى «وجودية» (١) فكان كأبي نواس الذي تداوي بالتي كانت هي الداء.

وكان كالحضارة الغربية التي مالت شمسها للغروب اذ تداوى من الخمرة والجنس والجشع والتمييز العنصري والعنف والآلية بمزيد من الخمرة والجنس والجشع والتمييز العنصري والاستعمار والتصنيع..

فهل نقول: على الريف، على المدينة، على الدنيا السلام؟؟

كلا: ان الكنانة لم تخل. وان العرين لم يخوِ. وان شهداء الدرب من بلابل وشبان وفتيان، اولئك الذين خضبوا الدرب بدمائهم للسالكين، كانوا ضريبة لا بد منها لكل من يخوض معركة، وكانوا جسراً إلى الوعي، إلى التماس الخطة الناجعة.

---

(١) عناوين قصائد له في ديوانه المذكور (قصائد).

فالبلبل الصريع، كان إلى اخلاصه وجماله يعوزه الذكاء والخبرة والارادة، والفتى المسلول كان إلى لطفه وقوته تعوزه الاخلاق والنظر البعيد، وعشاق الشقية كانوا كالفراش الذي يخطب ود النار، اين منهم رجل متمرس ابي جواب ثائر، يخوض الغمرات. ويصارع المغريات. حتى اذا بعد المزار، واستعر الاوار، وقف صامداً مجاهداً، ورفع راسه إلى السماء شاكياً وراجياً يلتمس الحبل المتين والمدد الذي لا ينفد.

كيف انجو يا خالقي من شباب
عارم، عاصف التوثب ضاري [1]
مستبد بكل ذرات جسمي
مستفز كوامن الاوطار
كلما رمتُ كبته، ثار جهلاً
وتخطى عقلي وأعيا قراري

انه يعاني من أزمة البلبل الغريب نفسها: شباب ورغاب ازاء الاغراء الملح، والعصر الطافح بالاحابيل المطبقة المرهقة، حتى استعصت عليه النفس المطواع، وبات قشة على وجه السيل:

ولو اني كفيت اغراء عصري
وأحابيل خلقه الاشرار
وحبيت اختيار وجهة امري
لتساميت واستقر قراري

---

(١) ديوان (مع الله) لعمر بهاء الاميري ــ طبعة الأصيل (١٩٥٩) ــ ص: ١٩.

ولـكـانـت نفسي الـشرود تزكـت
غير اني كـالـعـود في الـتـيـار

ولكنه يتماسك، و يطرق باب النجاة متورعاً متضرعاً، سائلاً آملاً:

كـيـف انجـو يا خـالقي كـيـف انجـو
والمـقـاديـر ألـزمـتني إسـاري؟
فـتـخـيـرْ لمـن خـلـقـت سبيلا
تـرتـضيهـا، فـان ذاك اخـتـيـاري
لا تُـفـرطْ بِـمـنْ دعـتـك خلاياه
.. دِراكـاً، في لـيـلـه والنهـار

طوبى له، لقد عرف نفسه، وعرف دربه، وعرف ربه، فحقت له النجاة:

رب سـار والـسحْـب قـد لفّتِ النجمَ
فـحـار الـسـارون عبر الـقـفـار
سـفـر الـنـجـم فـاستبـان خـطـاه
فـرآهـا اهـتـدتْ بـلا إبـصـار

لقد امسك الشاعر عمر بهاء الاميري في قصيدته هذه «ضراعة ثائر» بخيط من خيوط النصر بل بالعروة الوثقى لا انفصام لها، ذلك لانه لم يصارع التيار بجماله و براءته ونبله، بل اضاف إلى ذلك الخبرة والوعي والصبر والارادة ودعمها جميعاً بالايمان الراسخ فدان له الفوز.

ولعلنا نلاحظ اخيراً ان ابن ريفنا وهو رمز ما آل الينا من ارثنا الحضاري، لا يستطيع منفرداً ومجتمعاً ان يتصدى لتيار الحضارة الوافد المشوب، لان فطرته وما يلوذ بها من طيب وطهر وصحة وعطاء لا تحميه فضلاً عن ان تبني له حضارة جديدة، فهو إلى ذلك ينطوي على موروثات اجتماعية وعادات بالية هي حرب عليه وعون للازياء والمغريات والشباك المنصوبة له في كل حانة وعلى كل شفة وخلف كل رداء. وهذا ما شهدناه في حكاية البلبل والمسلول والشقية، اما في ضراعة ثائر فقد انفرجت الازمة بلجوء صادق إلى الله تعالى، واذا كانت ازمة الجنس وهي اكبر ازمات الحضارة العصرية واخطرها، قد عولجت بالايمان، فان الحضارة عباب زاخر بالسم والدسم، بالبناء والهدم، بالدعارة والعلم.. مما يقتضينا ان نلبس لكل حال لبوسها، وان نسلخ مجتمعاتنا بأسلحة الخبرة واليقظة والحذر والاختيار والايمان إلى جانب ما عندها من فتوة واخلاص وتضحية وفطرة.

سلسلة ولسون الحضارية *

تعريف ـــ عرض ـــ مناقشة

ـ ١ ـ

كولن ولسون كاتب شاب يدخل الأدب والفكر المعاصرين من باب عريض وهو لا يدعي ذلك. وتثور حوله المعارك النقدية مشجعة ومثبطة، وتتلقفه الصحافة والإذاعة والتلفزيون وهو ذاهل، بعد أن صدر كتابه الأول «اللامنتمي» وطبع عشر طبعات خلال أربعة أشهر ورغم أن كتبه الثلاثة مرآة لحياته وتجاربه الخاصة ـــ كما يعلن ـــ فقد سطر فصلاً واعياً عن تاريخه الشخصي، وافتتحه من يقظته الفكرية المبكرة بعد مطالعة مجملة اضافية عن (أينشتاين) صاحب النظرية في النسبية، فوصف انصرافه الغريب إلى المطالعة والبحث والمناقشة والحياة الجدية الدائبة، على حساب رزقه وراحته وصحته وتفوقه المدرسي. لقد كان يتأرجح في سلم الحياة العملية بين ضابط في سلاح الطيران وعامل في تعبيد الطرق والأزقة، بين موظف

(*) (اللامنتمي) (سقوط الحضارة) (طقوس في الظلام) نشر دار العلم للملايين ـــ بيروت.

محترم في شركة كبيرة وعامل للغسيل والتنظيف. لكنه كان دائماً ذلك المفكر الذكي القلق الباحث عن الحقيقة عن الهدف عن السعادة النفسية العالية. وكان إلى جانب ذلك كثير القراءة مولعاً بالمطالعة الواسعة الموسوعية، وقد قام فعلاً، وهو فتى، بتسويد ستة دفاتر تلخص جميع المعارف الإنسانية. كما كان كثير التمزيق لما يكتب. وقد رزق بصيرة ثاقبة وذاكرة قوية وملكة على المقارنة والربط فائقة. فضلاً عن الصراحة والجرأة والصدق.

— ٢ —

وكتابه **الأول «اللامنتمي»** أصدق شاهد على ذلك: «واستطعت ذات صباح أن أضع خطة كتاب ما خلال نصف ساعة، وكنت مزمعاً أن أسميه (اللامنتمي في الأدب)، وأردته أن يكون بحثاً لمختلف أنواع القلق الإنساني. وأعددت قائمة بأنواع الناس الذين كنت أميل إلى بحثهم. واهتديت في الحال إلى بعضهم... وكان هنالك طبعاً عدد كبير من مختلف أنواع اللامنتمين، كان هنالك بعض العمليين بينهم، وكان هنالك أيضاً سلبيون تماماً. وكان في وسعي أيضاً أن أخصص جانباً من الكتاب للشخصيات الدينية، التي كانت جميعها عاصية ضد التقاليد الشائعة، وهكذا يتشعب اللامنتمي إلى ناحيتين، ناحية الضعف، وناحية العصيان. ثم أعقب بالوجوديين الفرنسيين — وكان ذلك كله يشير إلى وجود صلة بنيتشه، في حين أن دراسة التشاؤم تربط الموضوع بشوبنهاور وشبنغلر». (سقوط الحضارة ص٤٩). «لقد

كان «اللامنتمي» محاولة لبحث مسألة (أن الإنسان ليس كاملاً بدون دين)». ص ٣٩٥.

والمؤلف نفسه يوفر علينا عرض كتابه الثاني «سقوط الحضارة» والخطة التي سار عليها فيقول: «لقيت في تأليفه عناء أشد من العناء الذي لقيته في تأليفي «اللامنتمي»، لان موضوع هذا الكتاب أشد تعقيداً. ففي الفصل الاول: حاولت أن أحدد مظاهر اللامنتمي بشكل مركز، وأن أبين ما أعنيه بالوجودية وكيف أن مفهومي لها يشتمل على أمور أوسع من تلك التي تفهمها (كيركغارد) أو (هايديغر) أو (سارتر)، ان وجوديتي هي أقرب إلى فكرة (غوتيه) في «الثقافة التربوية». وقد حاولت أن أركز على هذا بدعم بحثي بتحليل لـ (ريلكه ورامبو وسكوت فتزجرالد)، وخاصة الاخير لانه يمثل انسان القرن العشرين أصدق تمثيل. ولا تتضح فكرة الكتاب الاساسية الا في الفصل الثاني: تدهور الحضارة الغربية. ولهذا فان هذا الفصل مخصص لبحث (شبنغلر وتوينبي). ويعود القسم الثاني من الكتاب إلى بحث مشكلة اللامنتمي ومحاولته لكي يكون منتمياً بقبول الحل الديني، وقد بحثت في هذا القسم (بوهمه وسويدنبرغ وباسكال وفيرار ولو ونيومان وكيركغارد وبرناردشو) ودرست حلولهم، وقد وضعت (شو) في قائمة اللامنتمين الدينيين عمداً لكي أبين أنه لا يمثل ظاهرة وحيدة ــ كما يعتقد نقاد العصر الحديث ــ ولكي أوضح علاقته بغيره من المفكرين الذين وقفوا ضد المادية منذ القرن السادس عشر. أما الفصل الاخير، فان اتجاهي البحث: الاتجاه

الديني والاتجاه التاريخي، يتقاربان لبحث أفكار فيلسوفين كبيرين من فلاسفة القرن العشرين هما (فتكنشتاين) و (ألفرد نورث وايت هيد) والتناقض الكامن في أن الاول كان لا منتمياً في حياته دون أن يكون كذلك في فلسفته، في حين أن الثاني عاش حياة انتمائية واستطاع أن يبدع أول فلسفة لا انتمائية انكليزية. ولا يمكن أن يكون هذا الكتاب أيضاً حلاً نهائياً للمشاكل التي تشغلني ـ وكيف يكون ذلك؟ بل انه ليس غير شروع في اتجاه جديد يضاعف المشاكل التي استعرضتها في «اللامنتمي». أما الاستنتاجات التي ينتهي اليها الكتاب فانها متشائمة بقدر ما للامر من علاقة بالحضارة الغربية». ص ٥٥. ويقول في موضع آخر: «هذا الكتاب يسير في اتجاهين في وقت واحد: يتغلغل عميقاً في اللامنتمي نفسه وفي الوقت نفسه يبحث في التاريخ عن مشكلة تدهور الحضارات. ويقود الطريق الاول إلى الداخل، إلى التصوف، وأما الثاني فانه يقود إلى الخارج، إلى السياسة» ص ٦.

أما الكتاب الثالث «طقوس في الظلام» فهو قصة طويلة أو رواية في المصطلح الفني. ومن أبرز خصائص هذه الرواية أنها تجسيد حي للافكار الفلسفية التي تعرض لها المؤلف في كتابيه السابقين وانتهى اليها.

وتدور أحداث هذه الرواية حول شخصيتين هامتين: الاولى شخصية (سورم جيرارد) الذي يتقمص أفكار المؤلف وعواطفه

وتساؤلاته الفلسفية وحبه للبطالة في سبيل المطالعة والكتابة والبحث والتأمل ومطاردة الرؤى الذهنية والوصول إلى تفسير صحيح للوجود وللحياة. أما الشخصية الثانية فهي شخصية (أوستن نن) الذي يعطينا صورة غريبة لشاب ثري مترف، له اصدقاء كثيرون ورحلات عديدة ومغامرات غامضة ونفقات جمة. والحق أن الشخصية الثانية قد استهلكت أكثر أحداث الرواية، وأن شخصيات الرواية جميعها انما كانت تدور حولها وتتصل بها بسبب أو بآخر، كالعمة (جيرترود) المربية و(الاب كاراثرز) المرشد و(غلاسب) الصديق الفنان.

أوستن نن هذا كان يرمز في الرواية إلى الحضارة الغربية المادية المترفة التي تنفق وتبذر بلا حساب، والتي تحير الناس بمظاهرها وأساليبها وسلوكها وألوانها، وتخدع الاذكياء فضلاً عن السذج والعامة. لقد ظل (سورم جيرارد) المؤلف مخدوعاً بالصديق الطارىء (أوستن نن) حتى اللحظات الاخيرة من الرواية، كان يحس بجاذبية اليه، كان يحتاج اليه كان يراه موضوعاً للتجربة والتأمل والدراسة، كما كان يعاني على يديه شيئاً من التعب والاشمئزاز والرعب أحياناً، لكن سورم صبر عليه بدافع العطف، بدافع حسن النية، بدافع الحاجة وأخيراً بدافع الحيرة من أمره: هل يعقل أن يكون اوستن شاذاً جنسياً واذا كان كذلك هل يعقل أن يكون شذوذه سادياً، واذا كان كذلك هل يعقل أن يكون المجرم الذي يقتل النساء خنقاً أو بقراً أو ذبحاً بين حين وآخر في أشهر ساحات (لندن) لا لشيء الا للعبث أو التشفي أو للزهو أو التحدي، واذا كان كذلك هل ندين أوستن؟؟؟.

هذه الكتب الثلاثة على جانب خطير من الاهمية لما انطوت عليه من أفكار فلسفية، ولما سارت عليه من أساليب في الاداء والتعبير والاخراج، ولما انتهت اليه من نتائج.

ان الخيط الفكري الذي ينتظم الكتب الثلاثة: هو البحث عن معنى الحياة عن الهدف، وعن هذا الخيط الاصيل تتشقق المسائل الاخرى. والحق أن معنى الحياة (من أين جئت؟ ولم جئت؟ والى أين أنتهي؟) هو المحور الرئيسي الذي دارت حوله فلسفات الانسان وعقائده وتصوراته منذ خلق إلى اليوم وستبقى كذلك إلى الابد. أما المؤلف فقد قرع الابواب كافة، ومحص الحلول المطروحة جميعاً. بدأ من نفسه بالتأمل والتركيز الذهني والمطالعة والمعايشة للواقع، ثم استشار التاريخ والفكر الانساني المعاصر والموروث والاديان. لقد كان قلقه الفكري مرعباً، وشوقه إلى اليقين أو الاطمئنان الروحي هائلاً، لكنه عرف بعد جهد مضن استنفد فتوته وشبابه أن له أمثالاً في القديم والحديث، الا انهم قلة لا سيما في هذا العصر المظلم. وعرف أنهم عصاة على الغالب، كالانبياء والمصلحين الاجتماعيين، لذا أطلق صفة «اللامنتمي» على كل منهم. فالمجتمعات تتألف من عصبة اللامنتمين، ومن قطيع هائل من المنتمين الذين هم كالانعام أو أضل سبيلاً. ونسبة اللامنتمين إلى المنتمين إلى بقية المجتمع في العدد والهيمنة والتأثير هي التي تقرر مصير هذا المجتمع وحضارته ومستقبله. وكلما اتسعت الهوة واحتدم العداء بينهما آذن الفناء هذا المجتمع المزدوج بالزوال. ليست هذه

العدواة طبقية بين فقير واقطاعي، بل ليست عداوة في الاصل، انها سوء فهم الفريق المنتمي للفريق الآخر، للمُثُل الحضارية للاخطار الروحية والحيوية التي تهدد المجتمع. انها تحريك للبصائر الانسانية ولا تحريك: اي انها الحدود الفاصلة بين الانسانية والحيوانية. الانسان ليس حيواناً مقلداً، ولا آلة عديمة الاحساس، ولا جماداً لا هادفاً. الانسان انسان، انسان بتوقه إلى المعرفة، وبأشواقه الروحية، بتوسيعه لادراكه وخياله، بتحقيقه لذاته ووجوده وهويته، بتحكمه في مصيره ومستقبله هو على الاقل.

على هذا المستوى يجري قلم كولن ولسون، وعلى هذا الصعيد يشرّح الحضارات الانسانية والحضارة الاوربية المعاصرة على الاخص: «وقد سهل علي أن أقرر لنفسي بعد ذلك أن معظم البشر يعيشون حياة كئيبة من الدرجة الثانية، لانهم لا يعرفون مفهوم النظام الروحي والذهني» ص ٣٥. «انني لمقتنع بأن الناس يموتون (وهم أحياء) لانهم يكفون عن الرغبة في الحياة. ترى أي هدف هنالك في العيش حين لا يكون هنالك أي تحد أو أي دافع. وحين يقوم القائد الاوتوماتيكي بأداء كل شيء». ص ٤٢. «ان نتيجة القاء أهمية عظمى على العقل هي الفوضى والنصفية. ان هذه الفوضى هي السبب الرئيسي في سقوط حضارتنا». ص ٣٨٤.

وبالتلخيص نقول: ان سلسلة المؤلف تنم عن تطواف فكري واسع غني بالتجارب والانفعالات والنتائج والحلول. لقد أدرك

أخيراً بتجربته الخاصة و بدراسة التاريخ والاديان والفلسفات المختلفة أن الحل الديني الصافي هو الحل الصحيح. كما أدرك أن الشوائب التي طرأت على المسيحية هي التي حطمت الحضارة: «كنت أفهم الحاجة إلى الله والحاجة إلى الدين، بل انني كنت أعطف على الذين كرسوا أنفسهم مثل (سوسو) أو القديس (فرنس) اللذين نسجا مختلف الاوهام حول الصليب والمساميرو بقية الرموز التقليدية، الا أنني لم أستطع أن أقنع نفسي بحاجتي إلى مخلص لينقذني». ص ٣٥. «و يبدأ اللامنتمي عادة بأن يكون رومانسياً غير مؤمن بأي دين، و ينتهي إلى الايمان بمعتقدات دينية كلاسيكية ــ حديثة» ص ١٦٥. «ولا يمكن الادعاء بأن هذا هو ما تبشر به المسيحية وحدها، لانه كان هدف كل نبي عظيم ومعلم ديني منذ بدأ العالم». ص ١٧٦. «أجل لقد كان بولس مختلفاً جداً عن المسيح، كما أن الدين الذي اخترعه بولس وسماه المسيحية لم تكن له علاقة بتعاليم المؤسس». ص ١٧٩. «ولهذا السبب نجد برناردشو يسميها الصليبية بدلاً من المسيحية». ص ١٨٣. «وهكذا صار اللامنتمي عاصياً وبدأ الاصلاح». ص ١٨٥.

أما مذهب المؤلف الفني في الكتابة فهو الالتزام، المذهب الذي لا يفصل الادب عن الحياة: «وبالرغم من أنني كنت استخدم الكتابة لتصفية ذهني، فانني لم أعتبر نفسي كاتباً قط. الكتابة هي وسيلتي إلى الهدف الذي أنشده وحسب». ص ٥٢. «ان مجرد تفكيري في انفاق حياتي من أجل أن تخصص لي بعض

الصفحات (في تاريخ كمبردج للادب الانكليزي.. يلوح لي أشد أنواع الرتابة كآبة». ص ٥٣. ثم ان تحليل المؤلف لمئات الآثار الادبية والاجنبية الجيدة يقدم لنا برهاناً جديداً على أن الادب الخالد يجب أن يكون ذا هدف. ذا قيمة ثابتة، ذا صدق ذاتي.

وأخيراً هل تنبأ المؤلف بشيء عن حضارة الاسلام الجديدة: «ولما كان العالم قد أصبح الآن مكاناً صغيراً تتشابك فيه الحضارات، فانه لمن الصعب نكران أن هذه التشاؤمية تحيط بالبشر قاطبة، لان هذا أمر يحتمه المنطق. الا أنه ما يزال لدي شيء من التفاؤل لم تقض عليه بعد هذه الافكار، رغم أنني لا أعرف السر في ذلك».!!

باب التعريف والنقد

مراجعة لكتاب

الاسلام والغرب والمستقبل

مؤلف الكتاب أرنولد جوزيف توينبي (١٨٨٩-١٩٧٠م)، مؤرخ انكليزي عمل في وزارة الخارجية البريطانية وفي تدريس اللغة والتاريخ الاغريقيين، وبحث في الشؤون الدولية. بلغ قمة الشهرة بكتابه (دراسة في التاريخ)، وهو بحث لنمو الحضارات وتطورها وانحلالها من خلال ما أسماه «التحدي والاستجابة»، مهتماً بدور النخبة الثقافية والخلقية. زار مصر ثلاث مرات (١٩٦١ و ١٩٦٤ و ١٩٦٩) وألقى عدداً من المحاضرات. كما تُرجم الكثير من مؤلفاته إلى العربية [١] واعتبر لدى المشتغلين في

---

(١) من كتب توينبي المترجمة إلى العربية: مختصر دراسة للتاريخ ــ الفكر التاريخي عند الاغريق من هومر إلى هيراكليس ــ فلسطين الجريمة ودفاع ارنولد توينبي ــ العالم والغرب ــ الحضارة في الميزان ــ محاضرات توينبي في الجمهورية العربية المتحدة (١٩٦١ و ١٩٦٤) ــ تاريخ الحضارة الهلينية ــ بين آمدداريا وجمنا ــ مع أرنولد توينبي ــ الوحدة العربية آتية.

ميدان الثقافة في طليعة المفكرين الغربيين الذين يناصرون القضايا العربية لا سيا قضية فلسطين والوحدة العربية.

أما كتابه ــ موضوع البحث ــ المترجم إلى العربية (الإسلام والغرب والمستقبل)، (فهو ترجمة محاضرتين ألقاهما في عامي ١٩٤٧ و ١٩٥٢) مع مقدمة لناشر الكتاب وتعليقات وحواش متفاوتة لمترجمه الدكتور نبيل صبحي.

في المحاضرة الأولى (الإسلام والغرب) يلخص المؤلف بحثه منذ السطور الأولى، فيقول: «تحدثت سابقاً، عن نقطتين في لقاء روسيا مع الغرب: الأولى هي أن روسيا نجحت في الاحتفاظ بنفسها وهي تواجه الغرب، وذلك باقتباسها الأسلحة الغربية. والثانية هي أن الأسلحة الغربية المقتبسة.. كانت «عقيدة»، وأنه من خلال تطبيق هذه العقيدة الغربية الشيوعية تمكنت روسيا من الانتقال من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم المعاكس الذي يثير قلق الغرب اليوم. وقصة علاقات روسيا بمجتمعنا الغربي في عصرنا الذي نعيشه، هي في بعض ملامحها إعادة لقصة قديمة لعبت فيها الحضارة الاغريقية والرومانية دور الحضارة الغربية الحديثة، أما دور روسيا، فقد لعبه في ذلك الوقت، الإسلام». ص ١٥. ثم يبسط المؤلف بعد ذلك مواجهة الإسلام للغرب على ضوء هاتين النقطتين منذ محاصرة العثمانيين فيينا للمرة الثانية (١٦٨٢-١٦٨٣) حيث بداية تحول التيار لمصلحة الغرب، حتى إسقاط أتاتورك الخلافة وقيام دولة باكستان. لذلك كانت حركات (التغريب) في العالم الإسلامي ــ بمختلف درجاتها ــ

هي التي وقف عندها المؤلف، يدين جرعات التغريب الصغيرة، ويحبذ تغريب أتاتورك الحاسم، الذي تم على أيدي شبان الجيش الذين أتقنوا اللغات الأجنبية كما في روسيا.

أما في المحاضرة الثانية (الإسلام والغرب والمستقبل) فيلحظ المؤلف في مواجهة المسلمين للغرب ظاهرة قديمة لدى اليهود لما واجهوا الحضارة الهلينية الرومانية وانقسموا إلى فريقين: فريق المتحمسين، الذي يتهرب من الشيء المجهول، و يلجأ إلى الشيء المتعارف عليه، كأن يلجأ إلى السلاح التقليدي أمام التكنيك والأسلحة الحديثة. سلوك هذا الفريق غريزي غير عقلاني، وموقعه الجغرافي غالباً ما يكون قاحلاً في الواحات أو الجبال، نائياً صعب الوصول اليه. وفريق المقلدين (يعمل على أساس أن أفضل طريقة لدرء خطر الشيء المجهول هو تعلّم أسراره) بعد التخلي عن فنه التقليدي. سلوكه عقلاني، وموقعه الجغرافي (على مقربة من الأسواق العالمية الطبيعية الكبرى) قرب مضايق البحر الأسود وقناة السويس.

حركة كل من الفريقين ردة فعل ــ وإن كانت ردة المقلدين أقوى ــ لا تقدم أي حل للمشكلة، وصدامهما أضعف من فاعلية الفريقين.

وسوابق التاريخ ــ مثل ظهور المسيح عليه السلام ــ تنذر بظهور فريق ثالث يؤدي دوراً كبيراً للمسلمين ولبروليتاريا الحضارة الغربية الواسعة، وللبشرية المنكوبة.

إن منهج المؤلف في محاضرتيه منسجم مع نظرته في تفسير انحلال الحضارات وقيامها على ما أسماه «التحدي والاستجابة»، كما أن نتائجه ــ بشكل عام ــ منسجمة. وموضوعيته لا تتأتى عن تجرده من العاطفة. بل من انسجامه مع منهجه للتحليل والتفسير والاستنتاج. فهو مثلاً يعترف بأوباء حضارة الغرب: كالتمييز العنصري ونشر الإدمان على المخدرات وترك المجتمعات البدائية التي داهمها في فراغ روحي، وكعدوى القومية التي أفشاها في عصر يُحوِجِ إلى الأخوة الإنسانية، ثم نهب الثروات فضلاً عن تعذيب المتحمسين وقمعهم حينما واجهوا أسلحة الغرب الفتاكة.

وقل مثل ذلك في إدانته جرائم (المقلدين) أمثال أتاتورك ومحمد علي، بحق إخوانهم (المتحمسين)، لكن المؤلف ــ بحكم عاطفته ــ يلتمس للمقلدين الأعذار.

إذا رحنا نلتمس المواطن التي كشف فيها المؤلف عن تحيزه العاطفي، فسوف نراها تتجلى بأشكال متباينة:

١ ــ العاطفة المباشرة: حين ينتهي إلى الحديث عن الفريق الثالث للمسلمين، وعن دور الإسلام في المستقبل... يحذّر من يقظة الخلافة الإسلامية (إن النائم قد يستيقظ)، ومن تزعم المسلمين لبروليتاريا العالم، يحذر بصراحة فيقول: (إذا سبب الوضع الدولي الآن حروباً عنصرية.. يمكن للإسلام أن يتحرك ليلعب دوره التاريخي مرة أخرى.. وأرجو أن لا يتحقق ذلك) ص ٧٣.

٢ ــ العاطفة شبه المتوارثة: في اعتذاره عن جرائم (المقلدين) وحكام المستعمرات الغربيين، وفي إغفاله دور الماسونية واليهود (الدونمة) في اسقاط الخلافة العثمانية ودعم حركات التغريب.

٣ ــ فلتات اللسان وصيغ التعبير: يقول مثلاً: (بقي علم «الهلال» يرفرف فوق السواحل الشرقية لبحر الأدرياتيك مقابل «كعب» إيطاليا حتى عام ١٩١٢) ص ١٧. فالمقابلة بين العلم ــ وهو رمز نبيل ــ وبين «كعب» إيطاليا الرمز المبتذل يحمل ما يحمل. ومثل ذلك اعتباره دور الإسلام في منافسة الهند والشرق الأقصى مجرد منافسة على (الغنيمة) ص ٦٠.

٤ ــ النتائج المنحرفة: ولعل هذا الجانب هو أخطر ما في المحاضرتين، لأنه الثمرة المرجوة من جهد جاد. ومنهج غير ساذج. فالمؤلف بعد أن يُسقط من الحساب (المتحمسين) و (المقلدين) ــ وهو محق ــ يتشوّف إلى فريق ثالث يتجاوزهما، كما تجاوز المسيح عليه السلام ــ معاصريه، فلا يجد المؤلف إلا الفرق المتغربة، المنحرفة عن الإسلام، التي أوجدها الاستعمار أو دعمها لضرب الإسلام باسم الإسلام كالبهائية والأحمدية. ص ٦٠[1].

---

(١) الأحمدية أو القاديانية أو البابية: حركة منحرفة مشبوهة أسسها الميرزا غلام أحمد القادياني في لاهور من بلاد الهند. وهو تلميذ للرشتي الداهية الباطني المشبوه. بعد استعمار روسيا القيصرية لمملكة القوقاز يحضر روسي ليزود الباب غلام أحمد بالأسلحة والخبرة العسكرية، كما يدعي الأرمني الروسي (منوجهر خان) الإسلام ليخدم الشاه ويحمي الباب غلام أحمد في قصره من بطش المسلمين، ثم يحاول إدخال الشاه في البابية. دخل يهود إيران في حركة البابية بشكل جماعي=

ولعل المؤلف المطلع أوسع الاطلاع لا تخفى عليه حقيقة هاتين الحركتين. بل سيتضح لنا سبب اختياره لهاتين الحركتين من استنتاجات وإشارات مغرضة سابقة، فمثلاً يزعم في السطور الأولى من محاضرتيه أن الإسلام (هرطقة مسيحية) كالشيوعية! وفي مكان آخر يدلس على القارىء حين يتحدث عن الهجين المختلط

=ففي أربع مدن وفي مدة قصيرة دخل منهم (٣٨٥) يهودياً. ومن الماسونيين (جولدزيهر) المستشرق روج لهذه الحركة، ومن المبشرين في الغرب اهتم بها (اللورد كرزن ــ استلين كار بنتر ــ براون ــ فاميري ــ الكونت جوبينو ــ البروفسور جيمس دارمستر ــ نقولاس ــ الليدي شيل ــ الدكتور جيل. راجع (حقيقة البابية والبهائية) لمحسن عبد الحميد، منشورات المكتب الإسلامي ص (٩٩-١٠٤) ط ١. من أهداف الحركة تعطيل الجهاد، والتبعية لأعداء الإسلام.

البهائية: حركة كالبابية في أصولها وأهدافها لتعطيل الجهاد، أسسها تلميذ الباب غلام أحمد، وهو الميرزا حسين علي المازندراني، في إيران. تعاون الانكليز مع الروس واليهود لانقاذ حياة البهاء الميرزا حسين علي وإخراجه من إيران، ثم من بغداد إلى تركيا وأخيراً إلى عكا، حيث أعدوا المؤامرة الكبرى بإعلان الميرزا نفسه (رباً للجنود ومسيحاً جاء لهداية العالم) والدعوة إلى التجمع الصهيوني، واعتبار قيام دولة العصابات (اسرائيل) دليلاً من التوراة على صدق مزاعم البهائية. أما اهتمام الانكليز بالبهائية من تقديم الأوسمة إلى الدعم المادي والأدبي فبحث يطول، وحسبنا الآن مقتطفات من خطب ابن الميرزا، عبد البهاء عباس في نوادي لندن وكنائسها يقول: «إن مغناطيس حبكم هو الذي جذبني إلى هذه المملكة». ويقول: «أصبحت المدنية الغربية متقدمة على الشرقية، وأصبحت الآراء الغربية أقرب إلى الله من آراء الشرقيين». ويقول: «إن لندن ستكون مركزاً لنشر الأمر». وأخيراً احتضنت بريطانيا المؤتمر البهائي عام ١٩٦٣ ــ راجع المصدر السابق، ص (١١٨-١٩٦).

الذي نتج عن تداخل الحضارة الاغريقية بحضارات السوريين والفرس والمصريين والبابليين والهنود. (ففي هذا الوسط الاجتماعي، وفي جو من الشروط المحيطية الصعبة. ظهر بعض الابداع الجبار الذي حققه الفكر البشري، وكان ذلك في مجموعة من الديانات الرفيعة التي ذاع صيتها في الآفاق، ولا يزال صداها يرن في آذاننا، أما أسماؤها: المسيحية، والمذرائية ـ عبادة الشمس، والميكائية أو المانوية ثنائية العبادة لله والشيطان، وعبادة الأم وموت وبعث ابنها ـ سيبيل ايزيس وآتيس اوزيريس، وعبادة الاجرام السماوية، والمدرسة البوذية ـ ماهايانا ـ والتي تحولت من فلسفة إلى دين بتأثيرات سورية وفارسية، وانتشرت في الشرق الأقصى، مع الأفكار الهندية التي جعلت في قالب فني جديد مستوحى من الإغريق) ص ٥٩ ـ ٦٠.

ما الجامع بين الدين السماوي الذي حمله المسيح عليه السلام وبين هذه الوثنيات. ثم ما الجامع بين الإسلام والهرطقات المسيحية ؟! ليس الإسلام ولا ما حمله المسيح عليه السلام بهجينين لحضارات متصارعة بل هما تجاوز لعهود الظلام على هدى من الله تعالى. وما خلط المؤلف بين هذه الأمور إلا احتيال لإيهام القارىء بوحدة الأديان السماوية وغير السماوية، ومن ثم صحة الدعوة إلى توحيد الأديان السماوية. إن وحدة الأديان السماوية شيء، ودعوة البابية والبهائية إلى توحيد الأديان لتعطيل الجهاد عند المسلمين شيء آخر، فهاتان الحركتان تنطلقان من أن اليهود والمسيحيين والمسلمين يؤمنون برسالة (موسى) عليه السلام، وهذا

القاسم المشترك حقيق بجمعهم على صعيد واحد! طبعاً هو صعيد هيكل سليمان؟! [1] ولهذا نرى المؤلف يتساءل عن نتيجة (الخليط المتنافر الذي نتج عن غزو الغرب للعالم)؟ أهو التطور السلمي البطيء فالإبداع؟ أم الانفجار المدمر (الذي سيكون للإسلام ــ فيه ــ دور العنصر الفاعل في ردة فعل عنيفة تقوم بها البروليتاريا العالمية للشعوب المسحوقة. ضد أسيادها... الغربيين) ص ٦٨. ولما خشي من يقظة الخلافة وانبعاث التاريخ البطولي للإسلام كما حدث أيام الصدر الأول وأيام نور الدين وصلاح الدين، فلا بد من (تنويم) الخلافة والجهاد، والترويج للحركات المتغربة، خصوصاً وأن الدعوة القومية أخذت مكان الوحدة الإسلامية. ص ٧٢.

هذا بالنسبة إلى المنهج أو المضمون. وهو المهم، أما بالنسبة للأسلوب التعبيري، فمن الواضح أن المؤلف يتمتع بملكة أدبية حسنة، ربما تمتع القارىء أو توضح بعض الأمثلة، لكنها ليست من مستلزمات العمل العلمي، وهي تذكرنا بـ (رؤيا) توينبي الشاب التي فتحت له الطريق إلى نظريته المعروفة في التاريخ.

وعلى كل حال يمكن أن نتبين هذه الملكة الأدبية في المظاهر التالية:

١ ــ الثقافة الأدبية: مثل استمداده من نصوص ما يسمى بـ

(١) انظر (حقيقة البابية والبهائية) ــ لمحسن عبد الحميد ــ ص ١٩١.

(الكتاب المقدس) ص ٥٢، والثقافة الإسلامية ص ٢٨ وص ٧٣، والنصوص التاريخية أو السياسية ص (٢٣ و٤٠ و٥٣ و٥٨).

٢ ــ التعبيرات التصويرية: أي استخدام التشبيهات والاستعارات: مثل تصوير التغرب المحدود (بالجرعة الصغيرة)، وتأثيرات الغرب (بالهدايا) أو (النعمة) أو (العدوى) أو (الجرثومة). ومثل قوله: (يواجه الإسلام الغرب ــ وظهره للجدار)، وقوله: (بزغ فجر العصر البترولي) (والحرارات التي تستطيع أن تزحف كالأربعينيات على التلال الرملية) و (العري الاجتماعي) و (العري الروحي) و (يلجأ المتحمس إلى الماضي كالنعامة) و (جعل بلديها حقل تجارب) و (الحاجز اللوني) و (أسر الإسلام المغلوب غالبيه)[1]. هذا كله في كتيب لا تتجاوز صفحاته ثلاثاً وسبعين من القطع المتوسط!

٣ ــ صور من البيئة البحرية البريطانية: هناك نوع خاص من تعبيراته التصويرية غير ما ذكرنا، وهو ما يرجع إلى بيئة المؤلف البحرية. فمثلاً يكرر عبارة (ألقِ شباكه) وما يشبهها أربع مرات على الأقل ص(٣٥ و ٤٧ و ٦٧ و ٦٨)، ومثل ذلك قوله: (حولوا

---

(١) لم نشأ أن نستقصي تعبيراته التصويرية، فهناك صور أخرى مثل: (ألمنة لديانات سامية)، ص ٦٠، و (حصة الأسد) ص ٦٣، (بعبع) ص ٦٨، و (نومة أهل الكهف)، ص ٧٣، (الطائرات التي تحوم كالعقبان) ص ٣٩، و (الطبيعة تكره الفراغ) ص ٦٦. وفقرات البحث التالية مجموعة صور تعبيرية.

باختيارهم دفة سفينتهم وبدؤوا الابحار باتجاه ريح المقلدين). أما قوله: (تغيير جياد العربة وهي في وسط تيار النهر) فصورة ليست بغريبة لدى البريطانيين.

٤ ــ الروح الساخرة: للأسف تناولت سخريته المسلمين أكثر من غيرهم. الصور السابقة تشير إلى ذلك. نضيف اليها قوله: (إن الغرب نجح في أواخر القرن السادس عشر في عقد الأنشوطة حول عنق الإسلام) ص ١٩. و(إزالة الدين الإسلامي) ص ٢٥ و(كنست الشريعة الإسلامية) ص ٥٠ و(يعذبونهم بالعقارب) ص ٥٦ و(الوحدة الإسلامية ما هي إلا عارض للغريزة التي تدفع قطيعاً من الثيران)! ص ٦٩ و ص ٧٠.

أما بالنسبة إلى أسلوب المترجم فهو جيد بشكل عام. لكنه لا يخلو من بعض الهنات: مثل تقديم التوكيد على المؤكَّد (نفس الشيء) ص ٣٣ و٣٤ و٧١. والصواب (الشيء نفسه). و(المضرة) الصواب (الضارة) و(المفروضة من قبل سلطة) تعبير أجنبي صوابه (فرضتها سلطة) و(الفشل) صوابه (الاخفاق).

تعتبر المقدمة التي كتبها الناشر عملاً مشكوراً لولا قوله: (فات توينبي في استقرائه أمر جليل بالغ الأهمية. وهو أن بين معسكر الشرقيين المقاومين (المتحمسين) ــ كما يسميهم ــ وبين معسكر الشرقيين (المقلدين) معالم حركة ثالثة...) ص ١١. فالحقيقة ان هذا الفريق لم يفت أرنولد توينبي، بل ساق حديثه اليه ووقف

عنده وسماه بالاسم، لكنه حصره، أو لم يجده إلا في حركتي (الأحمدية والبهائية)[1] وقد نبهنا نحن إلى خطأ استنتاجه هذا، وصدوره عن روح التحيز التي لم يستطع التجرد عنها.

---

(١) انظر ص ٦٠.

الفهـــرس

الصفحة